اقرأ

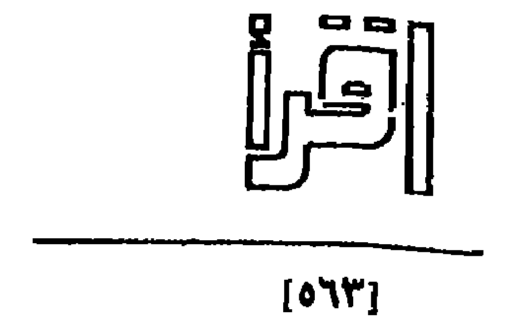
عبد المنعم شميس

... الأدب والفن في القاهرة





دار المعارف



[٥٦٣]

قهاوى الأدب والفن في القاهرة

عبد المنعم شميس

قهاوى الأدب والفن في القاهرة


دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها، لم يفكروا إلا فى شىء واحد، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الإستزادة من الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها.

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

مقدمة

هذا الكتاب جولة سريعة فى موضوع من موضوعات الثقافة المصرية هو دور القهاوى فى الحركة الأدبية والفنية فى القاهرة.

وتاريخ الأدب المصرى الحديث لم يسجل حتى الآن تسجيلاً علميا أكاديميًا رغم كثرة المؤلفات التى تناولت أطرافًا منه مثل هذا الكتاب الذى أقدمه للقارئ.

لقد بذلت مجهودات كثيرة، وصدرت كتب كثيرة عن الآداب والفنون المصرية، ولكننا لا نملك موسوعة أو دائرة معارف لهذا الأدب. إن هذا العمل لا يمكن إخضاعه لجهد الأفراد، ولكنه يحتاج إلى جهد جماعة من المثقفين القادرين على النهوض بهذه الموسوعة التى يخضع منهجها للمزاج العام لا للمزاج الشخصى.

وقد حاولت جهد طاقتى أن أقدم صورة عن قهاوى القاهـرة التى كانت مسارح للأدب والفن، واستطعت الوصول إلى بعض هذه الصور لا إلى كل الصور لأننى لم أجد المراجع التى تدلنى على ذلك، وكـانت مراجعى خلال فترة الحملة الفرنسية وما بعدها كتاب (وصف مصر) الذى

ألفه علماء حملة بونابرت على مصر، وكتاب (لمحة عامة إلى مصر)، الذى ألفه الدكتور كلوت بك مؤسس مدرسة الطب المصرية فى عهد محمد على، وكتاب الجبرتى الذى ذكر فقرات عابرة عن موضوع القهاوى، ودورها فى الحركة الأدبية والفنية، ثم انقطعت بعد ذلك الأخبار فى كتب التاريخ أو فى كتب الأدب، فعدت إلى أحاديث سمعتها من الرواة أو إلى مشاهدات شخصية، وكانت هذه العودة، تتم عن طريق الذاكرة.

لقد دفعتنى أهمية الموضوع وطرافته إلى المجازفة بكتابة هذه الصفحات التى أرجو أن تفيد القارئ وتمتعه.

وأنت ترى أنهم يهتمون فى البلاد الأوربية بموضوع القهاوى التى كان يرتادها كبار الأدباء والشعراء والموسيقيين وغيرهم، ويصل اهتمامهم إلى المطاعم والمشارب التى كان هؤلاء العباقرة يحبون الجلوس إلى موائدها.

فى فرنسا توجد مشارب وقهاوى فى حى موتمارتر أو موتبارتاس اشتهرت بسبب جلوس هؤلاء العباقرة فيها. وكان آخر القهوة التى كان يجلس فيها (جان بول سارتر).

وقد جلست فى قهوة فى قرية ألمانية صغيرة اسمها (أبولدا) فقيل لى إن نابليون بونابرت جلس على هذا الكرسى الذى أجلس عليه وكانت هذه المنضدة أمامه.

ومن أشهر المطاعم فى مدينة لايبزيج الألمانية (قبو أو لياخ) وهو القبو الذى زعموا أن جوته كتب فيه رواية (فاوست) وقد شاهدت هناك منضدة دكرسيين حولها سياج من الحديد وقيل لى إن جوته وشيللر كانا يجلسان فى هذا المكان، وقد وضعت هناك على الجدار ورقة داخل إطار

زجاجى قيل: إن جوته كتبها بخط يده وأنها جزء من رواية (فاوست).

كما أكلت فى مطعم بمدينة (فايمار) الألمانية قيل إن جوتـه اعتاد أن يتناول فيه طعام غذائه، قطعة من اللحم، وبعض البطاطس المحمر. كما قيل لى إن (مارتن لوثر) اختفى فى غرفة داخل المطعم تصعد إليها بسلم خشبى، وقد صعدت فعلاً، ورأيت الغرفة ولكننى لم أر أثرا من آثار (مارتن لوثر).

وفى لندن توجد قهاوى ومشارب قديمة من عهد الملكة فكتوريا علقت عليها صور مرسومة لبعض الأدباء والفنانين مثل كرماس هاردى ولورد بايرون، وشللى، وغيرهم يزعمون أنهم كانوا من رواد هذه الأماكن.

وأنا كتبت لك هذه الصفحات القليلة وأرجو أن تجد فيها متعة، وأرجو ألا تكون مملة.

عبد المنعم شميس

القهوة والقهاوى

كان العرب يطلقون على الخمر اسم القهوة، وفسر اللغويون ذلك، بأن الخمر تنهى صاحبها عن الطعام، أى تمنعه وتشبعه ومن أمثالهم: (فلان عبد الشهوة أسير القهوة) أى الخمر كما كان يضرب المثل بقهوة أبى نواس بسبب شهرته فى شرب الخمر.

وضرب المثل فى العصر الحديث بقهوة أبى الفضل وهو شيخ الأزهر الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوى فكان يقال:

– قهوة أبى الفضل لا قهوة أبى نواس.

وقهوة شيخ الأزهر هى قهوة البن المعروفة التى كانت سببًا لتأليف هذا الكتاب.

وقد روى الجبرتى أن أحد أئمة المساجد بناحية باب الخلق حرم شرب القهوة وأمر بإحراق البن، فقامت ضجة فى القاهرة بين من أباحوا شرب القهوة، ومن حرموا شربها، ثم استقر الأمر بعد ذلك، وانزوى هذا الشيخ الذى أثار الفتنة، ويشبه ذلك ما أثاره بعض أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب من الوهابيين الذين أشاعوا أن شيخهم حرم شرب

الدخان. ثم انتهى الأمر حين عرف أنه كان يجالس بعض الإنجليز من مدخنى البايب فتضايق من رائحة الدخان، أحس الـرجل الإنجليـزى بذلك فامتنع عن التدخين وانتهى الأمر، ولكن أعوان الشيخ قالوا: إنه حرم شرب الدخان بسبب هذه الحادثة.

واقترن شرب القهوة بالتدخين منذ أيام على باشـا الخادم الـوالى العثمانى على مصر (٩٦٦هـ - ١٥٥٨م) ولم يكن شرب الدخان معروفًا قبل ذلك.

كما اشتهرت القهوة التركية أيام حكم الترك العثمانيين لمصر، وهى تختلف فى طريقة صنعها عن القهوة العربية، وعن القهوة اليمنية التى تصنع بطريقة مخالفة للقهوة العربية أيضًا مع أن البن اليمنى كان أشهر أنواع البن فى القاهرة فى الجيل الماضى، ثم اندثرت شهرته فى عصرنا.

وكانت تجارة البن من أشهر تجارات القاهرة أيضًا، وكان تاجر البن يطلق عليه لقب (البنان) بل إن تجارة البن كانت تحتكر فى بعض العصور لشاه بندر التجار أو لأحد كبار التجار الـذى يتولى بيـع البن للتجار الآخرين، ولم يكن احتكار تجارة البن قاصرًا على القاهرة بل إن بعض مدن أوربا كانت تحتكر هذه التجارة الهامة أيضًا. وقد سمعت فى مدينة (بريمن) الألمانية أن تاجرًا اسمه (روزليوس)، كان يحتكر تجارة البن فى أوربا فى الجيل الماضى، ومازال اسمه مشهورًا فى تلك المدينة.

وقـد عرفت أمـاكن شرب القهـوة بـاسم القهـاوى وشـاء بعض المتحذلقين أن يطلق عليها اسم المقاهى اعتقادًا منهم بأن ذلك هو اللفظ الفصيح من ناحية اللغة لأن المقهى اسم مكان، أما القهـوة فهى اسم

المشروب الذى اعتاد الناس شربه فى هذا المكان.

ولم يطلق اسم القهوة فى اللغة العربية وحدها، بل اشتق منه اسمها فى اللغات اللاتينية أيضًا واشتهرت كلمة (كافيه) لتدل على المكان الذى تشرب فيه القهوة.

وظلت القهوة هى مشروب الضيافة عند المصريين على مر العصور حتى ظهر شرب الشاى، بعد الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢، ثم أصبح الشاى هو المشروب الشائع عند المصريين بعد ذلك. وقد روى محمود باشا فهمى أحد زعماء الثورة العرابية أن لورد لنبرن الشهير الذى يحمل نوعًا من الشاى اسمه حتى اليوم، استضاف أحمد عرابى باشا عندما نفى إلى جزيرة سيلان مع زعماء الثورة فى مزارعه التى كانت تنتج الشاى، وقد احتكرها هذا اللورد الإنجليزى. وأعجب عرابى باشا بشرب الشاى، وأرسل كميات منه كهدايا إلى أصدقائه فى مصر، فكانت هذه هى بداية انتشاره بين المصريين وساعد على هذا الانتشار أيضًا الاحتلال البريطانى، لأن الإنجليز كانوا ومازالوا من أصحاب المزاج فى شرب الشاى وله عندهم تقاليد خاصة يهتمون بها اهتمامًا شديدًا.

الشاى فى الأصل مشروب روسى، وكلمة شاى نفسها من الكلمات الروسية، وللشاى عند الروس تقاليد أخرى غير تقاليد الإنجليز، فالروس يصنعون الشاى فى إناء نحاسى كبير له صنبور، ويطلق عليه اسم (سيمانود) ويشربونه بكميات كبيرة. أما الإنجليز فيعدون الشاى فى آنية من البورسلين أو الفخار ويشربونه فى مواعيد محددة مع أنواع الكعك والحلوى التى يأكلونها مع شرب الشاى.

أما القهوة فإنها مشروب المصريين ومشروب العرب على اختلاف أقطارهم ولو تعددت طرائق صنعها كما ذكرت لك، والقهوة المشهورة فى مصر هى القهوة التركية.

ويبدو أن القهاوى عرفت فى مصر أثناء الحكم التركى العثمانى، فلم أجد فى مراجع التاريخ خلال العصور الإسلامية، أو العصر المملوكى إشارة ذات قيمة لهذه الأماكن، بل كانت التجمعات الشعبية تتم فى أماكن غير القهاوى.

كانت توجد الخمارات، وهى أماكن شرب الخمر، وقد أمر الحاكم بأمر الله بإغلاقها وتكسير آنياتها، كما أمر بمنع صنع الخمور بل إنه أمر باقتلاع الكروم من مناطق معينة حتى لا يصنع منها الخمر.

وكانت السفن فى النيل من أماكن اللهو والطرب والغناء فى المناسبات مثل احتفالات وفاء النيل، وشم النسيم، وسبت النور، وعيد الغطاس عند الأقباط، وكان المسلمون يشاركون فى كل هذه الأعياد.

وكانت السفن تمثل مكانًا عائمًا للتجمع الفنى، حتى إن الشعراء فى عصر المماليك، وحتى عصر محمد على، كانوا يجمعون قصائدهم الغنائية فى مجموعات، يطلقون عليها اسم (السفينة) وكان أشهرها سفينة شهاب: وهى أضخم مجموعة للأغانى المصرية والشامية جمعها شاعر فى كتاب واحد، وصاحبها هو الشيخ محمد شهاب الدين، الشاعر الرسمى لدولة محمد على، وله ديوان شعرى، ومن أشهر أعماله القصيدتان المكتوبتان على شبابيك جامع محمد على فى القلعة من الداخل ومن الخارج، وكان الشيخ شهاب من ندماء عباس باشا الأول حفيد محمد على ووالى مصر،

وله معه نوادر يرويها الرواة، وكان عباس باشا يخصص له غرفة فى كل قصر من قصوره حتى يلازمه فى كل مكان ينـزل فيه. ولم تكن سفينـة شهاب وحدها هى التى جمعت أغانى ذلك العصر، بل كانت هناك سفن أخـرى فقدت ولم نعـثر عليها حتى اليـوم، ومنها سفينـة السيـد عـلى الدرويش، وسفينة الشيخ محمد القلعان، وغيرها.

وقد أطلق اسم سفينة على هذه المجموعات الشعرية الغنـائية لأن السفينة كانت هى مكـان الاجتماع الـذى يغنى فيه المغنـون ويعزف الموسيقيون، ويجتمع حولهم عشاق هذا الفن على صفحة النيل.

وقد روى الجبرتى أنه كان على شاطئ بولاق عندما كانت ضاحية القاهرة فى الأجيال الماضية، أماكن للاجتماع بعضهـا قهاوى وبعضهـا خمارات، وكانت تحتفـل بالـرقص والغناء وروايـة السير الشعبيـة التى ينشدها شعراء الربابة.

وتحدث الجبرتى عن قهاوى القاهرة أيضا، وكانت تقدم ألوانًا من هذه الفنون، وكان من عادتها فى شهر رمضان أن تغلق أبوابها فى النهار وتفتحها بعد الإفطار، ولكن عساكر العثمانية الذين كانوا يفطرون فى نهار رمضان لم يعجبهم إغلاق القهاوى، فكانوا يكسـرون أبوابهـا لشرب القهـوة وتدخين شبك الدخان، وكانت تحدث مشاحنات واضطراب فى الأمن لهذا السبب، حتى يختل النظام وتتدخل الشرطة لفض الاشتباكات بين عساكر العثمانية وأبناء البلد من المصريين.

وعندما قدمت الحملة الفرنسية إلى مصر، وأقـام الفرنسيـون ملهى (كيغلولى) فى حى الأزبكية حيث كان يرتاده ضبـاط وجنود فـرنسا،

ويدخلون إليه بتذاكر مخصوصة كما يقول الجبرتى، قلدهم المصريون فى ذلك وأقاموا بعض الملاهى فى البيوت المغلقة التى كان الغناء والرقص وغيرها من الفنون الأخرى يتم بداخلها، وكان لكل بيت منها شخص يقف عند الباب يسمح للداخلين بالدخول، وكانوا يطلقون على هذا الشخص اسم «الخلبوص»، وقد انقد الجبرتى هذه البيوت بسبب دخول بعض علماء الأزهر الشريف إليها، حيث كان الخلبوص يعملن على «ملإ من الناس فى صوت مسموع»:

– مولانا شيخ الإسلام فلان.

ورأى الجبرتى أن ارتياد علماء الأزهر لهذه البيوت المغلقة رجس من عمل الشيطان، بسبب ما كان يعرض فيها من فنون مختلفة مثل الرقص والغناء والتهريج وغيرها.

ولكن القهاوى مفتوحة الأبواب كانت كثيرة فى القاهرة، وكان ارتيادها مباحًا لكل طبقات الناس بسبب تخصصها، ولا يلام أحد على الجلوس فيها.

وإلى جانب القهاوى العامة، كانت هناك قهاوى للطوائف المختلفة فى المجتمع، فهناك قهاوى لعلماء الأزهر والمشايخ العلماء، وهناك قهاوى للأفندية أصحاب الطرابيش، كما كانت هناك قهاوى لعمال المعمار، وللمنجدين، وللجزارين، وغيرهم من أرباب الصناعات أو الحرف.

ولم تكن الطبقة العليا فى المجتمع تبيح لنفسها ارتياد القهاوى، بل ترى ذلك مما ينقص من هيبتها ووقارها، وقد لاحظ ذلك علماء حملة بونابرت على مصر وسجلوه فى كتاب (وصف مصر). وقد ظل هذا التقليد

معترفًا به حتى الجيل الماضى، وقد عرف فى التاريخ أن الزعيم المصرى الشاب مصطفى كامل كان يجلس فى دكان شربتلى فى باب الخلق، وعرف أيضًا أن أمير الشعراء أحمد شوقى كان يجلس فى محل حلوانى.

كما أنه لم يكن مباحًا جلوس النساء فى القهاوى حتى بعد ظهور الحركة النسائية فى مصر، وقد عاب كثيرون على الصحفى الشهير الدكتور محمود عزمى أنه كان يجلس مع زوجته روسية الأصل، وهى روسية بيضاء. فى مقهى بار اللواء.

ولكن قهاوى القاهرة كانت وما زالت تنقسم إلى قسمين أحدهما القهاوى البلدية، والآخر هو القهاوى الإفرنجية وهى القهاوى التى كانت على النظام الأوربى، كما توجد أيضًا القهاوى النوبية التى تحدث عنها الكاتب البريطانى دبرتوند ستيوارز فى كتابه عن القاهرة، وذكر أنها كانت فى الستينات من هذا القرن مجتمع ست آلاف قهوة، وأنها كانت تمثل وكالات أنباء للنوبيين فى القاهرة، وأنهم يعرفون كل أخبارهم وأخبار عائلاتهم بالتفصيل فى هذه القهاوى.

وقد أحصى على باشا مبارك عدد القهاوى فى القاهرة حوالى سنة ١٨٨٠م، فكان عددها ١٠٦٧ قهوة، وكان أكبر عدد من هذه القهاوى فى قسم الأزبكية حيث بلغت ٢٥٢ قهوة، وكان أكبر عدد من الخمارات فى هذا القسم أيضًا، حيث بلغ عددها ٢٢٨ خمارة، كما كان يوجد عدد كبير من القهاوى فى قسم بولاق حيث بلغت ١٦٠ قهوة، أما قسم الجمالية فكان يوجد فيه ١٤٢ قهوة، وفى قسم عابدين ١٠٢ قهوة.

وكان شرب القهوة فى الجيل الماضى له تقاليد ومراسم وصفها الدكتور

كلوت بك، ناظر مدرسة الطب فى عصر محمد على وصفًا دقيقًا فقال: إن القهوة تشرب فى آنية صغيرة من الخزف أو البورسلين تسمى بالفناجين، وهى تشبه قشر البيضة مقطوعة نصفين من وسطها، وتوضع الفناجين فى آنية يسمونها بالظروف، وهى أشبه شىء بالآنية التى يوضع فيها البيض. والظروف تصنع عادة من الذهب أو الفضة، وترصع أحيانًا بالأحجار الكريمة. وعند الفقراء يكون الفنجان من الخزف والظرف من النحاس، وتصف عشرة فناجين أو اثنى عشر فنجانًا داخل ظروفها على محيط صينية من النحاس أو الفضة ترتفع فى وسطها كنكة القهوة التى تصنع من أحد المعادن وتعد لصنع القهوة.

ويقوم الخدم بصب القهوة فى الفناجين ثم بتقديمها إلى الحاضرين وهم يمسكون الظرف من أسفله بأطراف الأصابع فيتلقى الزائر الظرف، وتقدم القهوة أولاً إلى الشخص الذى يؤهله مقامه أو رتبته، أو ثروته، لأن يحوز شرف الأسبقية على غيره. فإذا وجد بين الحاضرين أكثر من واحد لهم نفس الدرجة من الأهمية تقدم إليهم فناجين القهوة فى آن واحد.

وذكر الدكتور كلوت بك أنه من الآداب العامة فى مجالس شرب القهوة، عدم جواز الحديث مع صاحب البيت فى أمر من الأمور إلا بعد تقديم القهوة، ويعتبر مثل هذا الحديث قبل شرب القهوة من سوء الأدب، وقد يعتبر فى بعض الأحيان تهجمًا على صاحب البيت.

وأذكر أن البيوت القاهرية القديمة كانت تستعد استعدادًا خاصًا فى هذا الموضوع، فكان لابد من وجود محمصة لتحميص البن، وهى آلة دائرية من الحديد لها باب صغير، يوضع البن الأخضر عن طريقه داخل

المحمصة ثم يغلق بعد ذلك ثم توضع الآلة فوق موقد من الحديد تشعل فيه النار ثم تدور فوقه الآلة الدائرية حتى يتم تحميص البن ويصل إلى الدرجة المطلوبة من الاحتراق.

وبعد أن يبرد البن المحمص تضاف إليه بعض التوابل مثل الحبهان وجوزة الطيب. ويطحن فى مطحنة تختلف أشكالها وأحجامها.

وكانت القهوة تقدم للضيوف رجالاً ونساء سواء شربوها أو لم يشربوها. لأن ذلك من الواجبات المقررة التى لا مفر منها.

وقد اختلفت أشكال فناجين القهوة منذ دخول مصر فى تيار الحضارة الأوربية أمام الخديوى إسماعيل، فكانت القهوة تقدم فى فناجين البورسلين ذات الأطباق الصغيرة وكانت هذه الفناجين ذات الآذان الصغيرة تستورد من البلاد الأوربية وتختلف قيمتها فمنها الغالى الثمين، ومنها الرخيص الذى لا قيمة له.

كما كانت القهوة تقدم فى القهوات البلدية لتشرب فى فناجين صغيرة من الخزف مثل التى وصفها الدكتور كلوت بك، ولكن بغير ظروف نحاسية، وكان يطلق عليها اسم (فناجين بيشة)، وهذا النوع من الفناجين يستخدم فى البلاد العربية أيضًا فى كافة الأحوال، كما كان يستخدم فى ريف مصر، وعند قبائل العربان بها، وأظن أنه مازال مستخدمًا فى هذه البيئات أو بعضها حتى اليوم.

وقبل تقديم السجائر العصرية مع القهوة فى الأجيال الحديثة، كانت عادة تقديم شبك الدخان هى السائدة، وقد وصف الدكتور كلوت بك (شبك الدخان)، ووصفه أيضًا علماء حملة بونابرت على مصر، وكثيرون

غيرهم من الأوربيين وهو إحدى الأدوات المنزلية، ويتألف من ثلاثة أجزاء هى: الفم، والأنبوبة، والجوزة أو الحجر.

فالفم هو الجزء الذى يوضع بين الشفتين لاجتذاب الدخان، ويكون عادة من الكهرمان، وقد يكون مزخرفًا بالمينا أو مرصفًا بالأحجار الكريمة. أما أفمام الفقراء تكون عادة من القرن أو سن الفيل.

ويختلف طول الأنبوبة من قدمين إلى ستة أقدام وتصنع من الخشب النادر، وتكسى بالحرير، وإذا كان صاحبها من ذوى اليسار يكسبى طرفاها بالفضة أو الذهب، وربما رصعت بالأحجار الكريمة، أما الفقراء فيصنعونها من الغاب.

وحجر الشبك، يصنع من الصلصال المحروق، وله أحجام مختلفة ويُحَلَّى أحيانًا بالنقوش العربية، وتظهر رونقه وجماله قيمة صاحبه.

وتدخين الشبك ليس قاصرًا على الرجال، فقد كانت بعض النساء تغمس بالتدخين داخل الحرم أو فى حجراتهن بعيدًا عن الأعين، وشبكاتهن أجمل من شبكات الرجال لكثرة ما فيها من الزخرفة والتنميق.

وكان أثرياء القاهرة يستخدمون أجود أنواع التبغ ويعطونه بماء الورد ويخلطونه بقطع صغيرة من العنبر، فيكون الدخان عندما يحترق يقطع الفحم الصغيرة عطرى الرائحة محبوبا فى الشم.

وكان الشبك يقدم كما تقدم القهوة غير أن تقديمه كان أقل شيوعًا من تقديم القهوة.

وعندما أنشأ محمد على دواوين الحكومة فى القلعة حرم على الموظفين تدخين الشبك أو شرب القهوة فى المكاتب. وأعد فى كل ديوان غرفة خاصة لذلك، فكان الموظفون يدخنون ويشربون القهوة فى تلك الغرفة، ثم يعودون إلى عملهم.

وقد وصف علماء الحملة الفرنسية بعض قهاوى القاهرة أوصافًا شائقة، فالقهوة كان رحب متسع مبنى من طابق واحد فى الغالب، ويتميز بالهندسة المعمارية الإسلامية فى الزخرفة وفى أبوابه، ونوافذه، وسقوفه، وأعمدته، ويجلس الناس فيه على مصاطب مبنية حول أعمدة، ونقوش عادة بالحصير، ومعظم القهاوى تحيط بها أماكن فسيحة تعلوها تكعيبات العنب، وقد تكون فى مقدمتها التى تضم أيضًا مصاطب مبنية مغطاة بالحصير تعد لجلوس الزبائن.

وكانت هذه القهاوى لا تخلو من فن من الفنون السائدة فى المدينة وهى، السير الشعبية التى يرويها شاعر الربابة، والرقص من العوالم والغناء، وألعاب خيال الظل أو فنون الأدباتية التى يقدمها بعض أصحاب المواهب الأدبية من المهرجين بأسلوب زجلى مرتجل يتناول الحياة العامة بالسخرية، والنقد، والتجريح، فى كثير من الأحيان، وكانت تبدأ بجملة مشهورة يقول فيها الأدباء عادة:

– أنا الأديب الأدباتى.

ثم يروى بعد ذلك حكايته على أنغام طبلة صغيرة يدق عليها بقطعة من الجلد، وكان عبد الله النديم، أشهر أدباتى فى مصر فى الجيل الماضى، وكان يحكى حكاياته فى مجلس المنشاوى باشا فى طنطا، عندما كان هذا

الباشا كبير أعيان تلك المدينة، وكان من أشد المعجبين بالأدباتى عبد الله النديم الذى أصبح فيها بعد خطيب الثورة العرابية.

وقد ظلت شخصية الأدباتى من شخصيات الأدب الشعبى المصرى، بعد اندثارها من المجتمع فى قصور الكبراء أو فى القهاوى العامة، حيث ظهرت فى المجلات الفكاهية التى كانت تكتب باللهجة العامية القاهرية، كما بقيت شخصيات أخرى على صفحات هذه المجلات، كان من أهمها شخصية صاحب الأرغول الذى يحكى الحكايات الزجلية أيضًا مبتدئًا بالعبارة المشهورة:

– الأولة آه.. والتانية آه.. والتالته آه وقد سمعت أن بيرم التونسى كان أول من كتب الأرغول ثم قلده زجالون آخرون فى هذا الفن، و لكن فن الأرغول من الفنون الشعبية القديمة التى كانت تقال إرتجالاً فى القهاوى، ولكن بيرم التونسى جعلها فنا مكتوبًا منذ سنة ١٩٢٤، عندما كان فى مرسيليا يشتغل مع الشيالين هناك. وهناك لجنة ملنر فى القاهرة تعد لإصدار تصريح ٢٨ فبراير الشهير، فكتب بيرم على الأرغول:

الأوله آه والتانية آه والتالتة آه
الأولة.. بالبنادق سكتوا الثوار
والتانية.. جا اللورد ملنر يربط الأحرار
والتالتة.. تصريح فى فبراير وأصله هزار
الأولة.. بالبنادق سكتوا الثوار ومدافع
والتانية.. جا اللورد ملنر يربط الأحرار ويترافع
والتالتة.. تصريح فى فبراير وأصله هزار ومش نافع

الأولة.. بالبنادق سكتوا الثوار ومدافع أهم فاضلين
والتانية.. قام لورد ملنر يربط الأحرار ويترافع عن الغايبين
والتالتة.. تصريح فى فبراير وأصله هزار ومش نافع وقولوا آمين.

الأولة.. مين يمزق حجة الطالب فى دين مغلوب
والتانية.. مين بس يمنع حجة الغالب عن المغلوب
والتالتة.. تسلب ولكن قال لنا السالب أنا المسلوب.
الأولة آه.. والتانية آه.. والتالتة آه

وقد استطاع بيرم التونسى نقل فن الأرغول إلى غناء أم كلثوم فى أغنية شهيرة من أغانيها، ويقول بيرم على الأرغول فى هذه الأغنية:

الأولة..فى الغرام والحب شبكونى
والتانية.. بالامتثال والصبر أمرونى
والتالتة.. من غير ميعاد راحوا وفاتونى

وفن الأرغول من الفنون الشعبية القديمة التى عرفتها قهاوى القاهرة وكان له موسيقيون يجيدون أنغام الأرغلول، وكان له أيضًا منشدون يجيدون الترنم بالكلمات المعبرة على هذه الأنغام.

ومن الفنون القولية التى كانت معروفة فى قهاوى القاهرة فن القافية، وهو فن مباراة كلامية بين شخصين يطلب أحدهما من صاحبه أن يدخل معه فى قافية، وعندما يقول الأول كلامًا لاذعًا فى وصف صاحبه، يقول له الشخص الآخر كلمة (اشمعنى) وهى اختصار تم لهم (إيش معنى) أو (أى يعنى تقصد إليه)؟ فيرد عليه الشخص الأول ردًا لاذعًا أيضًا، ومن شروط هذه المباراة ألا يغضب أحد الطرفين مما يقال فى المباراة، وقد اشتهرت

قهوة بجوار جامع السيدة نفيسة رضى الله عنها، وكانت المباراة تقام هناك كل ليلة حيث يجتمع النبهاء فى هذا الفن القولى هناك، وكانت أقوالهم تنتشر فى القاهرة، وقد اشتهرت مباريات شبيهة لها فى الاذاعة بعد ذلك بين الفار والجزار أو بين الخواجه بيجو وأبو لمعة، وكان نجيب الريحانى قد بدأ حياته التمثيلية بتقليد هذا الفن عندما كان يمثل شخصية كشكش بك عمدة كفر البلاص الذى كان يجرى مباراة كلامية مع الخواجه فى مشاهدة التمثيلية الفكاهية.

ولكن فن القافية أو (اشمعنى) الذى تطور وأصبح فنًا مسرحيًا وإذاعيًا بعد ذلك، كان فنًا جماعيًا من فنون القهاوى. فلم يكن أبطاله من الشخصيات المعروفة بالاسم بل كانوا من الهواة، كما كان المشاهدون السامعون لهم من نوعيات وطبقات مختلفة فى المجتمع، كما أنه لم يكن له إعداد سابق، بل كان من الفنون الشعبية المرتجلة التى يلتف حولها الناس فى القهاوى، وقد انتقل هذا الفن أيضًا إلى المجلات الفكاهية التى اشتهرت فى الجيل الماضى، وكان من أشهر كتابه الكاتب الزجال الفكاهى حسين شفيق المصرى.

لقد اهتم علماء الحملة الفرنسية على مصر كما اهتم الدكتور كلوت بك بآداب وفنون القهاوى فى مطلع العصر الحديث. ولكن هذا الاهتمام تضاءل بعد ذلك حتى حدثت نهضة فى كلية الآداب بجامعة القاهرة لدراسة الأدب الشعبى فى مصر، وكان الدكتور عبد الحميد يونس من رواد هذه النهضة، ثم حدثت نهضة أخرى خارج أسوار الجامعة، كانت لها اهتمامات بهذا الأدب الشعبى على وجه الخصوص، وكان من روادها الأستاذ زكريا

الحجاوى والأستاذ أحمد رشدى صالح.

ولكن ذلك كله لم يرض آداب وفنون القهاوى فى القاهرة على وجه الخصوص باعتبارها مركز إشعاع لكل نهضة فى مصر وهذا هو ما أحاول إلقاء بعض الأضواء عليه رغم صعوبته حيث أن كل الأمور التى تتعلق به أو معظمها على الأقل تعتمد على الذاكرة والمشاهدة والسماع وليس بين يدى أوراق مكتوبة أستطيع الرجوع إليها إلا فى القليل النادر، وهى فى جملتها تصور عصرًا سابقًا للعصر الذى أريد أن أحدثك عنه حيث كتب علماء حملة بونابرت على مصر فصولاً عن هذه الآداب والفنون كما ذكرت لك، كما كتب الدكتور كلوت بك فصولاً عن عصر محمد علـى، وكتب ادوارد وليام لين أيضًا كتابات هامة عن ذلك العصر.

وهناك كتابات متفرقة عن الموالد وآدابها وفنونها، وقد كان للقهاوى دور هام فى هذا الموضوع، حيث كانت القهاوى مركزًا لكثير من هذه الآداب والفنون فى هذه المناسبات الدينية الهامة.

كما توجد أيضًا بعض الكتابات عن فن هام من فنون القهاوى التى اندثرت من حياتنا وهو فن (خيال الظل) الذى كان يعرض رواياته فى بعض قهاوى القاهرة، وقد ذكر بعض الدارسين من الأجانب أن هذا الفن هو أساس فن السينما.

ولكن علماء الحملة الفرنسية ذكروا من فنون وآداب القهاوى هذه الفنون:

- الأغنيات الملحنة.
- العوالم والغوازى.

● الإنشاد الشعرى الذى يؤديه رواة الملاحم الشعبية من شعراء الربابة.

● الانشاد الدينى وأهمها إنشاد المدائح النبوية فى المولد النبوى الشريف، وغير ذلك من الأناشيد الدينية التى يرددها المداحون والمنشدون فى الموالد والمناسبات الدينية.

وقد كانت القهاوى مركزًا لهذه الفنون، ثم انطلقت منها إلى ساحات المدينة، وإلى بيوت بعض الأثرياء القادرين. كما اشتهرت خلال الأجيال الماضية بعض الأماكن فى القاهرة بتقديم هذه الفنون، وعرف منها فى عصر السلطان الغورى ناحية بركة الرطلى بحى الفجالة حتى ذكرت المصادر التاريخية أن بعض جوارى السلطان الغورى هربن من القلعة إلى بركة الرطلى وأقمن هناك مع أهل الطرب والرقص والعبث والفجور، حتى ثار السلطان وأرسل عساكر لمهاجمة هذا الحى الفنى وإعادة الجوارى إلى القلعة.

كما اشتهر فى الأجيال الماضية شاطئ بولاق ضاحية القاهرة بهذه القهاوى الفنية التى كان بعضها على البر وبعضها الآخر فى السفن العائمة على شاطئ النيل، وكان هذا الحى كما وصفه الجبرتى هو حى أهل اليسار من علية القوم وحى الأدباء والشعراء والآلاتية والمطربين وغيرهم من أهل الفن.

ومنذ قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر وحتى عهد قريب كان حى الأزبكية هو حى الفنون، فقد أقام نابليون فى قصر محمد بك الألفى على شاطئ بركة الأزبكية عند قنطرة الدكة، وقد سميت هذه القنطرة بهذا

الاسم بسبب وجود (دكة) عليها كان يجلس عليها من أتعبهم التنزه فى البركة أو حول البركة. وقد أقام الفرنسيون. ملهى (ينفولى) فى قصر من قصور المماليك فى الأزبكية وهو أول ملهى يقام فى القاهرة فى العصر الحديث.

كما كان قصر الشيخ البكرى شيخ مشايخ الصوفية فى الأزبكية. وكان يقام فيه المولد النبوى الشريف. وقد حضر نابليون بونابرت الاحتفال بالمولد الشريف هناك. وارتدى الجبة والقفطان والعمامة. وعندما ردمت بركة الأزبكية فى عصر الخديوى إسماعيل وأقيمت مكانها حديقة الأزبكية. ثم خططت الشوارع المحيطة بها. هدمت مساجد وبيوت وقصور كثيرة فى هذه المنطقة. وكان منها قصر الشيخ البكرى الذى منحه الخديوى إسماعيل قصر المسافرخانه بناحية الخرنفش بدلا منها. وأصبح مقرًا لمشيخة الطرق الصوفية.

وظلت منطقة الأزبكية مكانًا لقهاوى الفن والطرب وغيرها حتى عهد قريب. ثم امتدت إلى شارع عماد الدين فيما بعد. كما كانت هذه الفنون تنتقل إلى منطقة روض الفرج على شاطئ النيل فى فصل الصيف.

لقد انتهى هذا العصر بكل مباهجه. ولم يعد فى القاهرة قهاوى للأدب والفن يمكن أن نذكرها أو نتذكرها سوى قهوة حقيرة فى ميدان التحرير اعتاد الكاتب الكبير نجيب محفوظ أن يجلس فيها. وقهوة أخرى يستمع فيها الرواد لأشرطة من أغانى أم كلثوم ، ويطلقون عليها اسم قهوة أم كلثوم.

أما الفنون والآداب التى عرفت فى القهاوى أيام الحملة الفرنسية. وفى

عصر محمد على، فكانت كما صورها علماء الحملة الفرنسية وتابعهم فى ذلك الدكتور كلوت بك فى عصر محمد على فهى:

الموسيقى والغناء:

تحدث علماء الحملة الفرنسية عن أغنيات الآلاتية. وذكروا أن هؤلاء المغنين يعبرون عن الشهوة الحسية الشائعة فى أغلب الأغنيات.

وعندما تحدث الدكتور كلوت بك عن هؤلاء الآلاتية قال عنهم:

- المغنون الذين صناعتهم الغناء يسمون بالآلاتية، وتتألف منهم فى مصر طبقة محتقرة فاسدة الأخلاق، وتقدم إليهم أثناء الغناء المشروبات الخمرية كالعرقى، وغيره، وهم يفرطون فى شربها إذ يحدث أحيانا، وقد لعبت الخمر بعقولهم أن يفقدوا وعيهم ويسقطوا على الأرض.

وهذا الحكم العام على هذا الفن الرفيع فيه ظلم فادح من علماء الحملة الفرنسية ومن الدكتور كلوت بك على السواء، وقد ظل عالقا فى بعض الأذهان حتى عهد قريب بسبب تصرفات فردية من بعض أبناء هذه الطائفة. وبسبب اقتران الغناء والطرب عادة بمظاهر الأنس والفرح والبهجة التى قد تتعدى حدودها فى أغلب الأحيان وتصل إلى المتع الحسية.

ولكن الدكتور كلوت بك تدارك هذا الأمر فقال:

- ومن المغنين من لا خلاف فى جمال أصواتهم وحسنها. وهم يتوخون من مقامات الصوت والجهير الكروانى.

كما قال إن المصريين يميلون إلى سماع الموسيقى والغناء من قديم

الزمان، حتى إن بعض الصناعات عندهم لها أغان خاصة يقصد بالتغنى بها التعاون على إنجازها بسرعة ودقة، فالمراكبية لهم أغانيهم وأناشيدهم، وللسقايين من هذه الأغانى ما يساعدهم على ملء قربهم بالماء وحملها وتفريقها وهكذا بالنسبة لكل صنعة وحرفة، ولكل طبقة من الأمة أغانيها الخاصة بها، أما أغانى طبقة العلماء فتتسم بالجد، والوقار، لأن أغانى الغرام والحب والهيام لا توافق أمزجتهم، ولا تتفق مع هيبتهم ووقارهم.

إن موضوع الموسيقى والغناء فى مصر على وجه الخصوص من الموضوعات التى اهتم بها الدارسون والباحثون فى لغات متعددة منذ العصور القديمة وحتى عصرنا، والأغنية لها وضع متميز فى الأدب المصرى عبر كل العصور. وقد ذكر بعض شعراء العصور القديمة مثل (ابشيل). و (اوتبدسى) الأغانى النيلية التى ما زال مراكبية نهر النيل يتغنون بها حتى اليوم أثناء تسييرهم للسفن فى نهر النيل بنفس المعانى مع أن اللغات التى استخدمت فيها اختلفت من الهيروغليفية إلى اليونانية إلى القبطية إلى العربية.

كما أن الأغانى الفرعونية القديمة التى كان يتغنى بها المصريون القدماء فى المعابد أو الحفلات، وكانت تمثل أناشيد لآمون رع أو أغنيات لإيزيس وغيرها من الآلهة، وقد ترجمت من الهيروغليفية إلى لغات متعددة، وقد ترجمت بعضها من الإنجليزية إلى العربية.

وفى الخمسينات أصدر الموسيقار الألمانى «هانز هيكمان» كتابه عن الموسيقى المصرية القديمة، وذكر أن المصريين القدماء عرفوا كل الآلات الموسيقية، وكل فنون الغناء، والمسرح الغنائى، ولكن كتابه لم يترجم إلى العربية حتى اليوم.

ولكن موضوع الموسيقى والغناء بالنسبة للقهاوى فى القاهرة يعتبر من

الموضوعات الأساسية التى زالت من حياتنا اليوم، مع أنها كانت مزدهرة فى قهاوى الأزبكية وشارع عماد الدين، وروض الفرج، فى الجيل الماضى، بل إننى شاهدت وسمعت بعض المغنيين المتجولين فى القهاوى القاهرية منذ سنوات قليلة، وما زال هذا المغنى قائمًا فى أندية الليل فى القاهرة حتى اليوم، ولكنه ليس من فنون القهاوى التى عرفتها القاهرة وتميزت بها.

ومما لا شك فيه أن الأغانى هى المعبر الحقيقى عن وجدان الشعب المصرى، منذ نشوء الحضارة على ضفاف النيل حتى اليوم، وستظل هكذا على الدوام كما تدل على ذلك شواهد التاريخ، وهذه الخصوصية التى يتمتع بها هذا الغنى تدعو دائمًا إلى الجدل والمناقشة وكيل الاتهامات بالحق والباطل فى كثير من الأحيان.

العوالم والغوازى:

يفرق علماء الحملة الفرنسية بين العوالم والغوازى ويقولون: إن العوالم يسلكن سلوكًا يتسم بالحشمة ويخطبن بتقدير «أفاضل الناس، أما الغوازى فيشمل أولئك اللائى يركلن بالأقدام كل لياقة، ولا يقسم سلوكهن بأى نوع من الاحتشام، ولا يوحين إلا بالازدراء ويمتدح القوم أغانى العوالم والأسلوب الغنى الذى يؤدى به.

أما الغوازى فإنهن راقصات عموميات لا تقاليد ولا عفة لهن، وهؤلاء يظهرن فى الأماكن المطروقة بكثرة وكذلك فى الميادين العامة، وعلى أبواب القهاوى.

ويصحب الراقصة أى الغازية شخص يشار إليه باسم (خلبوص) وهو مهرج يقوم بأوضاع بالغة الفحش وبحركات وقحة تواكب حركات الغازية الراقصة.

وتستصحب الغوازى معهن عازفين يسمى الواحد منهم (غزواتى) يعزفون على الرباب أو الكمنجة وعلى المزمار، وفى غالب الأحيان يصحب رقصاتهن دف تضرب عليه راقصات حسناوات فقدن القدرة على الرقص.

وللغوازى أغنيات خاصة بهن.

وقد اشتهر فن الغوازى فى قهاوى القاهرة أيام الحملة الفرنسية وفى عهد محمد على الذى اشتهرت فى عصره رقصة خاصة اسمها رقصة النحلة، وهى رقصة من نوع الاسترتيين الذى عرف فى أوربا فى السنوات الأخيرة الماضية، وكانت الغوازى تؤدين هذه الرقصة على أنغام الموسيقى الصاخبة، وتمثل الراقصة أو الغازية أن النحل يلسعها، وتغنى أثناء الرقص مقطعًا تقول كلماته:

- النحل يا هوه.. يا ناس حوشوه.

ثم تخلع ثيابها قطعة بعد قطعة تألمًا من لسعات النحل الموهوم حتى توشك أن تصبح عارية، وعندئذ يلقى عليها الخلبوص ملاءة كبيرة تغطى جسدها بينما تقرع الطبول إيذانًا بانتهاء الرقصة.

وقد أمر محمد على بمنع هذه الرقصة من قهاوى القاهرة وكان فرمان المنع أول قرار يصدر فى موضوع الرقابة، على الفنون فى مصر فى العصر الحديث.

وعرفت بعد ذلك رقصة أخرى تعرف برقصة (القلة) وهى من الرقصات المنافية للآداب العامة، وعندما قدمتها بعض العوالم فى جناح المعرض الدولى فى باريس أيام الخديوى عباس حلمى الثانى منعتها

الحكومة الفرنسية رغم جو الحرية المطلقة التي اشتهرت بها باريس. وهذه إحدى النوادر التى ترويها للتاريخ فإن بعض الجاحدين من المصريين كانوا ومازالوا يزعمون أن بلاد الفرنجة وخاصة بلاد الفرنسيين من مواطن الفساد فى زعمهم.

وكانت قهاوى الأزبكية تقدم من الرقصات الخليعة ما هو ألعن من رقصة القلة، وعندما جلس الشيخ جمال الدين الأفغانى فى إحدى هذه القهاوى، وتحدث مع صاحبتها حديثًا دعاها إلى البكاء والتوبة وإغلاق القهوة، سارع الجاحدون من مشايخ الأزهر وعلى رأسهم الشيخ عليش باتهام الشيخ الأكبر بأشنع التهم، وهو الذى استطاع أن يهدى العاصية ويردها إلى الصراط المستقيم.

وأنا لم يتح لى مشاهدة هذه القهاوى لأننى لم أجرؤ فى شبابى على ارتياد بعضها خوفًا وحذرًا، ولم أفكر فى مشاهدتها مع أنها كانت موجودة فى أيام الشباب، ولكننى جلست فى قهوة عند باب حارة العوالم فى شارع محمد على عندما شرعت فى تأليف كتاب (سقوط القاهرة) الذى صدر فى مايو سنة ١٩٥١، وكان جلوسى فى تلك القهوة مغامرة من المغامرات، ولولا أننى صادقت نجارًا من شارع المناصرة كان من مرتادى هذه القهوة لما استطعت العودة إلى الجلوس هناك ومتابعة التعرف على أحوال هذه الطبقة من العوالم وأسرارها، فقد كان الأسطى أحمد سمبو هو وسيلتى لارتياد هذه الأماكن، وكان هذا الرجل ظريفًا نبيهًا عارفًا بحياة أهل الفن فى شارع محمد على، ولاحظت أنها لا تختلف كثيرًا عما سجله علماء الحملة الفرنسية وما سجله الدكتور كلوت بك عن هذه الحياة.

وقد اقترن هذا الفن الرفيع، وهو من فنون مصر القديمة منذ عصور الفراعنة بسوء السمعة في العصر الحديث، وعندما انتهت قهاوى الأزبكية ظلت الملاهي تقدم هذا الفن أيضًا، وقدمته السينما ثم قدمه التلفزيـون أيضًا على أنه فن من الفنون الرفيعة التي تلتزم الراقصات فيها بأصول الفن.

ولكن قهاوى العوالم والغوازى انتهى خبرها من القاهرة.

الملاحم الشعبية:

كانت قهاوى السير الشعبية حتى عهد قريب منتشرة في أحياء القاهرة، ولكنها اندثرت الآن ولم يعد لها وجود على الإطلاق.

وقد تحدث عن هذه القهاوى علماء الحملة الفرنسية وذكروا أن هؤلاء المنشدين هم رواة ملاحم حقيقيون يقصون الأشعار التاريخية أو الروائية أو الخيالية. وبعض هؤلاء يقص هذه الأشعار وهو يقرأ، وهناك آخرون يروونها عن ظهر قلب.

ويستخدم شعراء الملاحم آله موسيقية لمساندة الصوت وإطالته، وهم يرتجلون هذه السير الشعبية. وهذه الآلة هي الرباب، المزودة بوتر واحد.

وذكر هؤلاء العلماء أن الأماكن التي يتردد عليها هؤلاء المرتجلون والمحدثون هي القهاوى، إذ هم على يقين بأنهم يجدون هناك على الدوام جمهورًا كبير العدد، مهيأ لتشجيعهم ومكافأة مواهبهم، ولكن

الأثرياء الذين لا يترددون على المقاهى، فإنهم يدعون إلى بيوتهم رواة الملاحم، كما يستدعون الموسيقيين والراقصات لتسليتهم، ويكون هذا الأمر غالبًا احتفالاً ببعض المناسبات العائلية السعيدة مثل مولد طفل أو حفل عرس أو الاحتفال بضيوف.

وقد تحدث الدكتور كلوت بك عن هؤلاء المنشدين الذين يطلق عليهم اسم شعراء بتفصيل أكثر، وقال إنهم طائفة خاصة من الناس يروون تلك القصص على مسامع الجمهور، وهم ينقسمون إلى أقسام أو فرق تختص كل فرقة منها برواية قصة واحدة، كلا يعتدى محدثو إحدى الفرق على غيرهم من محدثى الفرق الأخرى.

وأكثر تلك الفرق عددًا هى الفرقة التى تُسَمَّى أعضاءها بالشعراء فقد احتكر هؤلاء الشعراء قصة أبى زيد الهلالى فى المجتمعات العامة، وكان فى القاهرة وحدها فى عصر محمد على خمسون شاعرًا من تلك الفرقة. ويليها الفرقة الخاصة بقصة الظاهر بيبرس ويسمى أعضاؤها بالمحدثين، ثم الفرقة المحتكرة لسيرة عنترة العبسى، ويسمى رجالها بالعنترية.

ولم يذكر كلوت بك ولا علماء الحملة الفرنسية من قبله بعض السير الشعبية التى كانت مشهورة فى قهاوى القاهرة، مثل سيرة الأميرة ذات الهمة، وعلى الزيبق.

كما وصف الدكتور كلوت بك طريقة أداء هذه الملاحم فقال: المحدثون طائفة خاصة من الناس يروون تلك القصص على مسامع

الجمهور، وهم ينقسمون إلى أقسام أو فرق تختص كل فرقة برواية قصة واحدة فلا يقتات محدثو إحدى الفرق على نظرائهم من الفرقة الأخرى بسرد حوادث قصصهم على السامعين وأكثر تلك الفرق عددًا الفرقة المتفق على تسمية أعضائها بالشعراء.

فقد احتكر هؤلاء إلقاء قصة أبي زيد في المجتمعات العامة. وفي القاهرة وحدها الآن خمسون شاعرًا في تلك الفرقة وتليها الفرقة الخاصة بقصة الظاهر ويسمى أعضاؤها بالمحدثين ثم الفرقة المحتكرة لقصة عنترة العبسي، ويسمى رجالها بالعنترية. والعادة المتبعة أن يجلس الرواة من المحدثين والشعراء والعنترية، وغيرهم على أبواب القهوات الكبرى في كل ليلة ولاسيما في ليالي الأعياد والحفلات وقد أعدت لجلوسهم صفة مرتفعة يستطيعون من أعلاها إبلاغ أصواتهم إلى مسامع الجميع موزونة الأنغام فيما يلقونه من القطع الشعرية، بأداة موسيقية ذات وتر واحد تسمى الربابة، ويجلس السامعون أمامهم صفوفًا متوازية كل منهم منصت لما يسمعه من القول، ومدخن للشبك، أو متذوق طعم البن تبدو على وجهه علامات السرور والاغتباط بما يسمعه من غريب الحوادث التي يضاعف اهتمامه بسماعها أسلوب القائها، فإن الرواة يلقونها بأصوات حماسية مقرونة بالإشارات التمثيلية، والحركات التي من شأنها أن تستثير الهمم من مكانها، وتوقظ النشاط من سباته، وكلما ازدحم المكان بالسامعين كانت رواية حوادث القصة أفعل في نفوسهم بما يأتيه الراوي من التفنن في الأساليب التي تشحن العواطف، وكثيرا ما يستفزهم ذلك إلى ابتكار حوادث وأقوال من عندياتهم يضيفونها إلى الأصل، التماس المبالغة في

تحريك النفوس واستثارتها.

وعندما ينتهى الرواة من سرد حكـايتهم يوافيهم صـاحب القهوة بيسير من المال أجرة لهم، وهذا غير ما يجمع رئيسهم من السامعين على أنه لا أحد من هؤلاء يلزم فى الحقيقة بدفع أى مبلغ إليه بمثابة أجر له ولكنهم لا يضنون عادة بشىء من المال، كل بقدر همته وبحسب ما تكون القصة قد أحدثته فى نفسه من السرور والارتياح والنشاط.

وأنت ترى أن القهاوى كان لها أثـر كبير فى حيـاة الأدب والفن، وكانت تمثل مراكز إشعاع مضيئة فى أنحاء القاهرة.

وقد دعانى هذا إلى كتابة هذه الصفحات عن القهاوى التى قرأت عنها أو سمعت بها أو شاهدتها وجلست فيها، لأننى أعتبر هذا الحديث فصلا من فصول التاريخ الأدبى لمدينة القاهرة، وهناك قهاوى أخرى كثيرة لم يتيسر لى معرفتها ويعرفها غيرى من الكتاب ويستطيعون الحديث عنها.

لا أريد أن أطيل عليك الحديث أكثر مما أطلت، حتى ندخل معًا فى الموضوع.. فهل تأذن لى؟

قهوة أفندية

كانت قهوة الحاج حسن أفندية بالقرب من الجامع الأزهر معروفة فى القاهرة، وقد جاء ذكرها فى خطاب كتبه عبد الله باشا فكرى إلى صديقه الشيخ عثمان حدوخ ممازحًا، ومن هذه الرسالة قوله:

– بالله عليك افتكر لنا شوية ولو على قهوة الحاج حسن أفندية، واللى يجلى على بالك تبقى تقوله للقلم والقلم يقوله لحتة ورقة، والورقة تخطف رجليها وتيجى هنا تقول لى لأجل ما أقعدش اتلخبط. أحسن النوبة دى لما جيت أكتب لك جات الكلمة دى قدام القلم عطلته شنكلته كمبلته، دق فى خناقها، دقت فى خناقه. فلفص منها، مسكت فيه، ما عرفش يخلص منها، قعدت أنا أتفكر فيها قمت نسيت الكلام اللى كنت رايح أقوله لك والله ما أنا عارف هو إيه، لسه كده إن كنت جدع وابن نكته تعرف أنا كنت رايح أقول لك إيه.

وهذه الرسالة مؤرخة فى ٥ جمادى الثانية سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧٠ م) عندما كان عبد الله فكرى باشا فى تركيا، وتدل فى ثناياها على أن الشيخ عثمان حدوخ هذا كان من أساتذة النحو فى الأزهر حيث حشاها كاتبها بالنكت النحوية.

كما توضح الرسالة أيضًا أن عبد الله فكرى الذى كان وزيرًا للمعارف أثناء الثورة العرابية من البلغاء المعدودين فى صناعة الكلام سواء فى اللهجة العامية أو العربية الفصحى. بل إنه كان من أوائل الذين حرروا الأسلوب الأدبى من المحسنات اللفظية فى العصر الحديث، ولكن الذى يهمنا هو قهوة الحاج حسن أفندية التى كانت تجمع الأدباء فى ذلك الزمان.

لماذا أطلقوا عليها اسم قهوة أفندية؟

لقد ذكر ابن باشا فكرى وهو ابن عبد الله فكرى وقد تولى مناصب رفيعة فى الجيل الماضى حيث كان ناظرًا للدائرة السنية ووكيلًا لوزارة المعارف العمومية، إن قهوة أفندية من القهاوى المعروفة فى حى الأزهر، وكان روادها فى الغالب من الأفندية، وهذا لايمنع من جلوس المشايخ فيها. ولكن أغلبية الزبائن كانوا أفندية من أصحاب الطرابيش، ولذلك أطلق عليها صاحبها قهوة (أفندية). بل إنه قرن اسمه بكلمة أفندية وتسمى باسم الحاج حسن «أفندية».

كان فى الأزهر فى الجيل الماضى، وحتى عهد قريب هى حى الأدب والفكر والفن، ويبدو أن قهوة أفندية كانت تموج بكبار الأدباء والعلماء فى ذلك الزمان، ومنهم عبد الله باشا فكرى، الشاعر الناثر البليغ، ولكننا لم نحتفظ بتراث هذه القهاوى كما احتفظ الفرنسيون بقهاوى مونبرتاس والحى اللاتينى فى باريس.

ويبدو أن الأفندية كانوا يرتادون هذه القهوة لأغراض أدبية، حيث كان يحدث التمازج بين الثقافة الأزهرية والثقافة العصرية الحديثة. أو

يحدث الهجوم من الجاحدين من المشايخ على هذه الثقافة الحديثة منـذ ظهور الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى. فقد ذكر (إدوارد وليم لين) فى كتابه عن القاهرة الذى لم يترجم إلى اللغة العربية حتى الآن أنه سمـع من المشايخ فى قهاوى حى الأزهر إتهامًا شنيعًا للشيخ رفاعة، فقال بعضهم إن الشيخ رفاعة بعد أن ركب السفينة فى الإسكندرية متجهًا إلى مرسيليا شرب الخمر حتى سكر، وربطوه فى سارية السفينة، وأنه عندما كان فى باريس داوم على مراقصة النساء الإفرنجيات إلى غير ذلك من تهم شنيعة باطلة تنم عن مقاومة الثقافة الأوربية الحديثة.

ولا شك فى أن قهوة أفنـدية، كـانت من القهاوى الأدبيـة فى ذلك العصر، ولكننا لانكاد نعرف عنها شيئًا أكثر مما ذكرته من مناقشات فى علم النحو بين عبد الله باشا فكرى وبين صديقه الشيخ عثمان حدوخ الذى قلنا إنه كان أستاذًا للنحو فى الجامع الأزهر استنتاجًا من رسالة عبد الله فكرى لا على وجه اليقين.

وقهاوى حى الأزهر اشتهرت فى الأجيال الماضية بـالعلم والأدب. وكانت أسواقًا لبيع الكتب حتى عهد قريب. كما كان يرتادها أهل الأدب والفن ويسهرون فيها حتى مطلع الصبح.

بل إن قهوجية الجيل الماضى كانت لهم مشاركة فعلية فى حياة أعلام العصر. ومن أشهرهم قهوجى لا نعرف اسمه ولااسم قهوته كان يتولى شئون الشيخ حسن الطويل أحد كبار علماء الأزهر وكان أستاذًا فى مدرسة دار العلوم وهو من المشاهير الذين أغفل الزمان ذكرهم ظلما وعدوانا.

كان الشيخ حسن الطويل من الزهاد المتصوفين، وكان يرتدى جبة وقفطانًا من قماش (البفتة) أو (الدمور) الرخيص زهدًا لا فقرًا، فهو كما كان يصف نفسه وكما كان أعلام العلماء يصفون أنفسهم بصفة الفقير إلى الله تعالى، وهذه إحدى حسنات علماء الأزهر الشريف التى علموها لنا ولم يعد أحد يذكرها فى هذه الأيام. فهم فقراء إلى الله تعالى الذى أغناهم عن البشر جميعًا مهما علت مراكزهم.

والشيخ حسن الطويل من هؤلاء الفقراء الأغنياء، وكان هذا القهوجى المجهول يتولى كافة شئونه فيعطيه الشيخ كل رواتبه، وقد وكل إليه أمور مسكنه ومأكله ومشربه وكسوته، وكل شئون أسرته.

وتراءى لهذا القهوجى وهو رجل من أبناء البلد أنه يجب عليه إعداد كسوة تليق بمقام الشيخ. ونفذ فكرته فأعد جبة وقفطانًا وحزامًا وعمامة ونعلاً من أفخر الأنواع ووضعها فى صرة وحملها إلى دار الشيخ حسن الطويل ولكن الشيخ ظل على حاله لا يرتدى إلا الجبة والقفطان من الدمور والبفتة. حتى جاءت اللحظة التى استخدمت فيها صرة الثياب الفاخرة التى كانت حديث القاهرة.

كان الشيخ الطويل أستاذًا للأدب والبلاغة فى مدرسة دار العلوم، واعتزم السلطان حسين كامل سلطان مصر زيارة المدرسة، فتحايل الناظر بكل الوسائل لإفهام الشيخ أن الزيارة السلطانية توجب الظهور أمام السلطان بمظهر يليق بمقام السلطان، حتى يغير الشيخ ثيابه يوم زيارة السلطان.. ثم كانت النادرة.

فى صباح الزيارة لم يذهب الشيخ الطويل إلى مدرسة دار العلوم لإلقاء

دروسه كالعادة. بل ذهب إلى القهوة حاملاً صرة الملابس الفاخرة، وشرب فنجانًا من القهوة ثم طلب من القهوجى أن يحمل الصرة إلى مدرسة دار العلوم ومعها رسالة قصيرة داخل مظروف مغلق ويسلمها إلى ناظر المدرسة فى يده.

لم يفهم القهوجى شيئًا، ولكنه نفذ رغبة الشيخ وسلم الصرة والرسالة إلى ناظر مدرسة دار العلوم، وكان مكتوبًا فى الرسالة سطر واحد كتبه الشيخ بيده..

- هذا هو حسن الطويل داخل هذه الصرة.

ثم أقبل موكب السلطان حسن كامل.. وخرج الناظر والمدرسون لاستقباله ثم طاف بالفصول ليستمع إلى بعض الدروس حتى وصل إلى الفرقة التى يلقى فيها الأستاذ الشيخ الطويل دروسه فلم يجده، وسأل عنه، واضطر الناظر إلى إطلاع السلطان على الحقيقة ويحمل إليه صرة الملابس والرسالة.. وقرر السلطان ألا يغادر المكان حتى يأتوا بالشيخ.. فأرسلت إليه عربة خاصة وأحضرته من القهوة التى كانت على ناصية الحارة التى يسكن فيها فى حى الأزهر. وظل السلطان ينتظره فى غرفة الدرس حتى وصل وألقى درسًا فى الأدب.

استمع السلطان حسين كامل إلى درس الشيخ حتى انتهى ثم وقف وشكره وهنأه.

يبدو أن هذا الشيخ كان آخر المشايخ الفقراء إلى الله سبحانه وتعالى.

ولكن أين هى القهوة التى كان يجلس فيها الشيخ الطويل ويشع منها أنوار أدبه وحكمته؟ وما اسمها؟ وما اسم صاحبها؟

هذا هو مالم أستطع الوصول إليه. ولولا أن عبد الله باشا فكرى ذكر اسم قهوة (أفندية) فى رسالته إلى صديقه الشيخ عثمان حدوخ ما حدثتك هذا الحديث.

وقد حدث بعد سنوات طويلة أننى كنت أسير مع صاحب لى من زملاء الدراسة فى الجامعة ورفاق الصبا والشباب، فضللنا الطريق فى بعض حارات حى الأزهر. وكنا كلما أردنا الخروج إلى الشارع نجد أنفسنا فى عطفة مسدودة أو خوخة ليس فيها أكثر من بيتين أو ثلاثة وهى مسدودة أيضًا.

كانت ليلة مقمرة من ليالى القلهرة الباهرة. وكنا نسمع فى بعض بيوت هذه الأزقة والحارات صوت البنات وهن يغنين لعروس فى الليالى التى تسبق ليلة الدخلة، وهى ليال كانت كثيرة فى الجيل الماضى قد تمتد أربعين يومًا، قبل يوم الزفاف. كانت الأغنية تقول بعض كلماتها.

– سهران ياليل وفى القمر

ما أجمل أن يسهر الليل مع القمر.

إن أهل القاهرة يحبون الغناء بالليل. ويظل المغنى يردد طول الليل كلمة ياليل ياعين.. والمغنون يتغنون فى غناء الليالى والموال.

رحم الله ليالى الصباه والشباب.

أخيرًا وجدنا أنفسنا فى حارة اسمها حارة حلقوم الجمل، وخفت أنا وصاحبى من أن نجد أنفسنا فى بطن الجمل حيث لا تخرج مرة ثانية إلى الحياة.

لقد كان المشى فى حارات القاهرة فى الليل وخاصة فى الليالى المقمرة محفوفًا بالمخاطر، ولابد أننا نسعى إلى لقاء فى هذا المساء.. وياويلنا من أهل الحارة. وقال صاحبى وهو يترنم:

أقبل ذا الجارا وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبى

ولكن حب من سكن الديارا

لم تنقذنا من هذه الورطة إلا قهوة فى هذه الحارة كتب عليها (قهوة كتكوت).

كان صوت البنات ما زال يتردد فى آذاننا على أنغام الطبول الصغيرة:

سهران باليل ويا القمر

حيران ياليل وطال السهر

جلسنا على مقعدين على باب القهوة، وكان يجلس بجانبنا رجل فحل طويل عريض، يرتدى قفطانًا من الشاهى وعلى رأسه طاقية بيضاء، وفى قدميه نعل أبيض. وبيده منشة من خوص النخيل يحركها ويعبث بها شمالاً ويمينًا

كنا غرباء فى ذلك المكان الذى ألقتنا فيه يد القدر، وأحسسنا إننا مثل طفلين تائهين يبحث عنهما مناد بيده جرس ويقول فى صوت رنان!

– عيِّل تايه يا أولاد الحلال والحلاوة نص ريال. تصور أن شابين مثلنا أصبحا فى قهوة المعلم كتكوت مثل طفلين تائهين ضلا الطريق.

وقال صاحبى وهو يضحك ساخرًا!

- صدق أستاذنا وشيخنا ابن المتولى حين قال إن خلاصة قصة يوسف فى كلمة موجزة هى: ولدناه وأبوه لقاه.

فقلت:

- لا تمزح.. ليس هذا وقت المزاح.

وجاءنا صبى القهوجي وطلبنا منه كنكة قهوة فقد كان العرف فى هذه القهاوى البلدية أن يطلب الزبون كنكة قهوة لا فنجان قهوة. فأحضر لنا الصبى الكنكة ومعها فنجانان صغيران كان يطلق على الفنجان منها اسم ا فنجان بيشة، وهو بلا أذن يمسك منها، ولكنه يمسك بين الأنامل.

بدأت أحتسي القهوة. وأتأمل المكان، وكانت كل الجدران من الداخل والخارج مغطاة بالخشب الذى تزينه قطع المرايا، ولكن المعلم كتكوت قطع على تأملى وسألنى لم جئت فى هذه الحارة؟ وهل تبحث عن أحد حتى أدلك على مكانه؟.

أسئلة كثيرة انطلقت من فمه بلا مناسبة. وأقوال كثيرة ذكرها بلا مناسبة أيضًا. فقلت له فى ايجاز شديد:

- نحن تهنا داخل هذه الحوارى حتى كلت أقدامنا فوجدنا هذه القهوة وجلسنا لنستريح.

ولكن المعلم كتكوت لم يقتنع، وبدا عليه الارتياب الشديد. فقد كنت أنا وصاحبى فى شرخ الشباب وفى سن متقاربة، وخيل إليه أننا لم ندخل حارة ونقتحم عرينه إلا لأسباب غرامية، ولكننا فشلنا فى الوصول فلجأنا إلى الجلوس في قهوته. حتى لا ينكشف السر.

وفاجأت المعلم كتكوت بسؤال عن اسمه وهل هو حقا هذا الاسم

الذى كتبه على اللافتة الكبيرة التى وضعها على باب المقهى، فضحك وأغرق فى الضحك. ثم قال:

- صحيح الغريب جاهل ولو كان متعلم

- كيف يا معلم؟

فقال وهو يضحك ويهز منشته الخوص فى يده:

- أنا اسمى المعلم فرحات ولكنهم أطلقوا على اسم المعلم كتكوت فاشتهرت فى الحى بهذا الاسم.

وبدأ المعلم كتكوت يحكى لنا حكايته فقال متباهيا إن قهوته كانت من أشهر قهاوى القاهرة فى صراع الديوك الهندية، وهو فن له أصوله، فقد كان يربى هذه الديوك وهى تختلف عن الديوك البلدية فى الحجم والشكل، فالديك الهندى كبير الحجم ضامر الجسم رشيق الحركة، عنده قدرة هائلة على العراك والصراع حتى الموت فحين ينزل إلى حلبة المصارعة والقتال. فإما أن ينتصر أو يموت فى الميدان.

فقلت للمعلم كتكوت:

- وماذا جرى؟

ورد فى حسرة وألم:

- جرى الذى جرى بعد أن منعت الحكومة صراع الديوك من القهاوى.. وكانت هذه الديوك هى السبب فى إطلاق اسم المعلم كتكوت على.

فقلت:

- وكيف كان ذلك يا معلم؟

فقال لا فض فوه:

- حدث أثناء المراهنة على صراع الديوك أن نقر أحد الديوك أخاه فى عينه حتى قلعها ثم قلع عينه الأخرى فى شراسة فصاح أحد الزبائن: الحق الديك يا معلم كتكوت.. ومنذ ذلك التاريخ أطلقوا على اسم المعلم كتكوت.. وأطلقت أنا على قهوتى اسم قهوة كتكوت.

وأنا شاهدت صراع الديوك الهندية فى صباى فى قهوة اسمها قهوة العنبة فى حى عابدين. وكان فيها تكعيبة عنب تظللها فعلا، وكان القهاوى التى تحمل هذا الاسم كثيرة فى القاهرة، وفى كل منها تكعيبة عنب أو كرمة يجلس تحتها الزبائن فى فصل الصيف، وكانت قهاوى العنبة تعترف باسم الحى أو المنطقة التى توجد بها. فهناك قهوة العنبة فى شارع محمد على أو القلعة أو حى السيدة عائشة أو غيرها.

أما صراع الديوك الهندية، فقد كان من المباريات التى يجتمع المتراهنون أى المقامرون فى القهوة، ويلتف حولها الكبار والصغار لمشاهدة المباراة، وكان ينزل إلى الحلبة ديكان مختلفان فى اللون وتبدأ بينهما المعركة فينقر أحدهما الآخر حتى يقضى عليه ويلقيه على الأرض هالكًا.

وكان القهوجية هم الذين يشرفون على المباراة ويقومون بدور الحكم فى لعب الكرة. ويجمعون أموال الرهان فى أيديهم حتى تتم المباراة. ويكون لهم نصيب بالطبع فى أموال المراهنة التى يراهن بها الزبائن.

ولما كثرت المشاحنات والمعارك والحوادث بين المتراهنين فى مباريات صراع الديوك قررت الحكومة منع هذه المباريات للقضاء على الحوادث

التى كانت تنجم عنها.

وعراك الديوك الهندية فى القاهـرة فى الجيل المـاضى يشبه صـراع الثيران فى أسبانيا، ويشبه أيضًا نطاح الكباش فى تونس الذى يجرى حتى هذه الأيام.

ولكن صراع الثيران الأسبانى، ونطاح الكباش التونسى يجرى كلاهما فى ملعب على أنه مباراة تشبة المباريات الرياضية. أما صراع الديـوك الهندية فى القاهرة، فقد كان فنًا من الفنون التى تعرضها القهاوى. وكانت تستخدم فيها عبارات التشجيع المسجوعة بـألفاظ معـروفة تعتـبر من التراث الشعبى مثل قولهم:

إديك فى عين زنبيلة

أو قولهم:

- أكسر جناحه قبل ما يكسر جناحك

ولم يكن الديك يفهم معنى هذه العبارات، ولكن ترديدها الحماسى كان يشعل نار المعركة بين الديكين المتقاتلين، كـما كانـوا فى بعض الأحيان يستخدمون الطبلة فى إشعال نار المعركة، وكانوا يدقون على الطبلة دقات منغمة متناسبة مع حركات الديوك المتعـاركة، أو مستنفـرة لها فى هـذا العراك.

لقد كان صراع الديوك الهندية فنًا من فنـون القهاوى البلديـة فى القاهرة، وقد اندثر هذا الفن كما اندثرت فنون كثيرة سأحدثك عنها.

قهـاوى حى الحسين

لم ينته الحديث عن قهاوى حى الأزهر والحسين، وقد كـانت هذه القهاوى، ومازالت تتخذ شكلاً خاصًا فى شهر رمضان فيزداد عدد روادها وتزيد فى مظاهر البهجة والسرور.

وقد كان هذا الحى منذ قديم الزمان. وقبل اختراع الطباعة هو حى الكتب والمكتبات، وكان الخطاطون والنساخون يتخذون من المقاهى مكانا مفضلاً لهم.

كانت حرفة نسخ الكتب الأدبية والدينية من الحرف الرائجة، كـما كانت حرفة كتابة المصاحف أكثر رواجًا فى شهر رمضان.

وقد ذكر علماء الفنون الإسلامية أن القاهرة كانت مركزًا هامًا من مراكز كتابة المصاحف بأيدى مشاهير الخطاطين. الذين اجتمعوا فى حى الحسين، ثم اشتركت معها اسطنبول فى هذه المهنة الرفيعة.

وقبل الفتح العثمانى لمصر على يد السلطان سليم بعد هزيمة السلطان الغورى فى واقعة مرج دابق، كانت القـاهرة تنفـرد بكتابـة المصاحف الفاخرة، وأنت تشاهد ذلك فى مصاحف سلاطين المماليك التى ما زالت موجودة فى قاعات هيئة الكتاب.

وفن المصاحف لا يرتبط فقط بالخطاطين الذين يكتبونها، بل هناك صناع آخرون منهم الرسامون والمذهبون الذين يشاركون الخطاط فى تزيين الصفحات وزخرفتها بعد كتابتها، ومنهم صناع صناديق المصاحف وكراسى المصاحف، وهى صناعات فنية دقيقة، ولا ننسى المجلدين الذين يصنعون جلد المصاحف ويذهبونها أيضًا فى براعة فنية فائقة.

وكانت القهاوى هى مراكز اللقاء بين هؤلاء الفنانين حيث لم يكن لمعظمهم دكاكين أو ورش، بل كانوا يقومون بأعمالهم فى بيوتهم، وخاصة الخطاطين والنساخين والرسامين والمذهبين.

وقد أشار كثيرون من المستشرقين ومنهم إدوارد وليم لين إلى أنهم كانوا يلتقون من الكتبية فى قهاوى حى الحسين، وكانوا يطلبون منهم بعض الكتب التى كانت مخطوطة قبل أن ينشىء محمد على مطبعة بولاق ويطبع فيها أمهات الكتب العربية.

ويبدو أن قهاوى حى الحسين كانت مختصة بالكتب والمصاحف، وكان يجلس فيها العلماء والكتبية والخطاطون وغيرهم ممن لهم صلة بصناعة الكتاب، وفى هذا الجو تتردد المناقشات الأدبية كما أطلعنا على ذلك عبد الله باشا فكرى.

وفى الجيل الماضى كانت القهاوى فى القاهرة لها اختصاصات، وقد شاهدت فى حى باب اللوق قهوة للمنجدين كانوا يجلسون إليها ومعهم أدوات التنجيد، وكان فى حى القلعة قهاوى خاصة لكل طائفة من طوائف عمال المعمار مثل البنايين والمبلطين والمبيضين وغيرهم.

ولذلك كانت قهاوى حى الحسين والأزهر مخصصة لأهل العلم والأدب

والفن، وقد عرفت منها قهوة الفيشاوى، وقهوة شعبان، وكان لها روادهما فى الصيف والشتاء، وفى رمضان وغيره من شهور العام.

وكان من نجوم قهوة الفيشاوى الشاعر البائس عبد الحميد الديب، والشاعر الظريف كامل الشناوى.

وكان عبد الحميد الديب ينام على دكة خشبية فى قهوة الفيشاوى، وإذا تكسرت ضلوعه من قسوة النوم على الخشب لجأ إلى جامع الحسين رضى الله عنه ونام على السجاد فى أحد أركانه.

وكانت لعبد الحميد الديب نوادر يرويها الرواة، وقد تكون صحيحة أو غير صحيحة، وقد قال القدماء إن آفة الأخبار هم رواتها.

كان عبد الحميد الديب ينام بملابسه وطربوشه على رأسه، وليس المهم فى الموضوع هو الملابس سواء إرتداها عبد الحميد صاحيًا أو نائمًا فهى لا تفارق جسده فى يقظة أو منام، ولكن المهم هو الطربوش فقد كانت خوصته تتكسر فى النوم ويفرده بيديه، وقد لاحظ أحد أصدقاء عبد الحميد أن الطربوش فى حاجة إلى تجديد حتى يستوى على رأسه، فذهب به شاعرنا إلى طرابيشى مجاور للقهوة وطلب منه أن يقلب الطربوش ويعيده إلى سيرته الأولى، فقال الطرابيشى لعبد الحميد الديب :

- هذا الطربوش سبق لى أن قلبته على الوجه الآخر.

فرد عليه عبد الحميد فى سرعة وبداهة :

- طيب.. هذه المرة اعدله.

فأغرق الطرابيشى فى الضحك وقال لعبد الحميد:

- من أجل هذه الكلمة سأصنع لك طربوشًا جديدًا على حسابى.

ومن نوادر عبد الحميد الديب مع عباس محمود العقاد أنه عرف أن العقاد يذهب يومًا كل أسبوع إلى المكتبة التجارية فى شارع محمد على وقد كانت تتولى نشر كتبه أو بيعها، وكان الحاج مصطفى محمد صاحب المكتبة يحتفل بالعقاد احتفالاً شديدًا على طريقة أولاد البلد الكرماء، فيدعو إليه الحلاق ليقص شعره كلما احتاج إلى ذلك، وإذا حان وقت الغداء أحضر له الطعام الذى يطلبه من المطعم المجاور للمكتبة، وقد يشترى له ما يحتاج إليه قبل عودته إلى داره فى مصر الجديدة.

كانت الدنيا رخاء، وكان الناس أصلاء

لقد اشتريت مقدمة ابن خلدون من الحاج مصطفى محمد بعشرة قروش وأنا طالب فى الجامعة، لأن العقاد عندما رآنى أطلب المقدمة من بائع المكتبة علق على ذلك قائلاً:

- شىء رائع أن يقرأ شاب يافع مقدمة ابن خلدون فقال الحاج مصطفى محمد:

- هات عشرة صاغ ولو أن ثمنها خمسة وعشرون قرشًا.

لقد ذهب عبد الحميد الديب إلى المكتبة فى اليوم الموعود واقترب من الأستاذ العقاد وحياه وسلم عليه، فأراد العقاد أن يكرمه بطريقة مهذبة، لا يحرج شعوره، ولا تشعره بمذلة السؤال، وكان قد صدر للعقاد كتاب جديد أراد أن يقدم نسخًا منه كهدايا لأصدقائه، أو لأعلام الكتاب

والأدباء والصحفيين، فكتب على كل نسخة الإهداء المناسب، وقال لعبد الحميد الديب:

– أرجو أن تنوب عني في تقديم هذه النسخ كهدايا لكل من كتبت اسمه عليها.

ثم قدم للشاعر البائس مبلغًا من المال حتى لا يشعره بذل السؤال، وقال له:

– خذ هذه الجنيهات لتنفق منها على المواصلات.

كان عبد الحميد الديب يستطيع أن يركب الترام إلى الزمالك أو الجيزة، أو العباسية، بستة مليمات. ولكن العقاد أعطاه جنيهات، وربط عامل المكتبة نسخ الكتاب، وحملها عبد الحميد وذهب على أمل أن يقدم كل نسخة لصاحبها نيابة عن العقاد.

وبعد دقائق معدودات جاء رجل ومعه ربطة الكتب وقدمها إلى العقاد، وقال إنه بائع كتب على سور حديقة الأزبكية.

قال الرجل إنه اشترى الكتب من رجل ضئيل الجسم مقعوص الوجه، ولما فتحها وجد على كل نسخة إهداء إلى شخصية عظيمة أو كاتب كبير أو صحفي خطير فأحضرها إلى المكتبة حتى يتصرف فيها الحاج مصطفى محمد ناشر الكتاب.

كان عبد الحميد الديب قد باع الكتب وعليها إهداءات الأستاذ العقاد لبائع كتب على سور الأزبكية، وقد دفع العقاد للبائع الثمن الذي دفعه وزيادة:

ومن نوادر عبد الحميد الديب التى كان يرويها الرواة أن الأستاذ إبراهيم الدسوقى أباظة باشا، وهو والد صديقنا الكاتب الأديب القصصى ثروت أباظة، شق عليه أن ينام الشاعر البائس على دكك القهاوى البلدية التى كسرت أضلاعه فطلب من صاحبه الأديب الشاعر الظريف محمد مصطفى حمام أن يستأجر له مسكنًا خاصًا ويؤثثه على حساب الباشا، وقام مصطفى حمام بالمهمة واستأجر غرفة فى بيت تملكه امرأة فى حارة من حارات شارع محمد على وأثث الغرفة بكل شىء يحتاج إليه إنسان حتى إنه وضع فيها قلة ماء على طبق. وعلق على مسمار فيها مصباح بترول نمرة عشرة كما روى لنا الأستاذ مصطفى حمام، ثم سلم المفتاح لعبد الحميد الديب وانصرف.

وفى اليوم التالى ذهب عبد الحميد الديب إلى الدسوقى أباظة باشا، وسلمه المفتاح قائلاً:

– هذا هو مفتاح الغرفة التى أمرت بها سعادتك.. لقد خرجت منها، ولما عدت إليها بعد جولاتى لم أجدها.

فعجب الباشا من كلامه وسأله:

– كيف لم تجدها؟

فقال عبد الحميد الديب:

– هذه غرفة ليس لها عنوان ياسعادة الباشا.. لقد بحثت عنها طويلاً، ولكنها.. تاهت منى.

وكان الذى تاه هو الشاعر عبد الحميد الديب الذى لم يكن فى استطاعته الإقامة فى مسكن معروف.

ومن مأثورات عبد الحميد الديب أنه قال لأصحابه عندما علم أن الوزير عبد الحميد عبد الحق عينه فى وظيفة فى وزارة الشئون الاجتماعية عندما كان وزيرًا لها:

- كنت متشردًا أهليا فأصبحت متشردًا رسميًّا ولم يتسلم هذه الوظيفة لحظة واحدة، وظل يتخذ من قهوة الفيشاوى فى حى الحسين محلاً مختارًا له مع ارتياده لبعض القهاوى الأخرى مما سأحدثك عنه.

أما الشاعر الظريف كامل الشناوى فقد أقام فى قهوة الفيشاوى أعجب حفل شهدته القاهرة لتنصيب نقيب حكماء الأسنان الراسبين فى الثلاثينات عندما كان إسماعيل صدقى باشا رئيسًا للوزراء.

وحكاية نقيب حكماء الأسنان الراسبين لها حكايات سأحدثك عنها، فقد رأت الحكومة أن تنظم مهنة طب الأسنان بعد إنشاء كلية طب الأسنان بالقصر العينى. وكان يمارس هذه المهنة أنماط من البشر، بلا ضابط ولا رابط، حتى إن بعضهم كان يقف على كرسى فى ميدان العتبة الخضراء، وبيده فتلة دوبارة، ويصيح فى الناس:

- خلع الضرس بقرش.

وكان المسكين الذى تلقيه الأقدار بين براثن واحد ممن يخلعون الضرس بقرش، يجد نفسه مربوطا فى خيط الدوبارة - أى يجد ضرسًا من أضراسة مربوطًا - ثم يجذب حكيم الأسنان هذا الخيط بقوة ليخلع الضرس، الذى قد يكون مجاورًا للضرس الفاسد، ثم تسيل دماء المسكين، وقد يحدث له تسمم يودى بحياته، وقد مات كثيرون بسبب هؤلاء الذين كانوا يمارسون مهنة طب الأسنان.

وحتى ينظم هذا الأمر الخطير، رأت وزارة الصحة أن تعقد امتحانًا لممارسى مهنة طب الأسنان فترخص لبعضهم بممارسة بعض الأعمال، وتمنع الآخرين الذين يرسبون فى الامتحان من ممارسة المهنة، وكان عدد الراسبين فى الامتحان كبيرًا، فألفوا لأنفسهم نقابة تدافع عن حقوقهم، وأطلقوا عليها اسم نقابة حكماء الأسنان الراسبين.

وسمع الصحفى كامل الشناوى عن النقابة الجديدة الغريبة وتعرف بواحد من زعمائها، وكان يحسن الصياح والكلام بحكم عمله سنوات طويلة فى هذه المهنة، ووقوفه على كرسيه الشهير فى ميدان العتبة الخضراء، الذى كان فى الجيل الماضى أكثر الأماكن ازدحامًا فى القاهرة، حيث كانت تلتقى فيه كل خطوط الترام القادمة من أنحاء المدينة.

وأقنع كامل الشناوى هذا الرجل بأن يصبح نقيبًا لحكماء الأسنان الراسبين، وأن يجمع زملاءه فى قهوة الفيشاوى لانتخابه لهذا المنصب الخطير.

وبعد مشاورات ومداولات تم الاتفاق على إقامة هذا الحفل الانتخابى فى قهوة الفيشاوى وحدد موعد الانتخاب.

ولكن كامل الشناوى رأى إكمالا لمراسم الانتخاب أن يرتدى النقيب بدلة ردنجوت حتى إذا ما تمت عملية الانتخاب يتوجه فورًا هو وأعضاء مجلس النقابة بصفة رسمية إلى قصر عابدين ويسجلون أسماءهم فى دفتر التشريفات الملكية، وبعد ذلك يتوجهون إلى مقر رياسة مجلس الوزراء فى ميدان لاظوغلى لإبلاغ نتيجة الانتخاب إلى مكتب حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء.

وهكذا تتخذ نقابة حكماء الأسنان الراسبين الشكل الرسمى المحترم، وينشر خبر تأسيسها فى الصحف. ثم تمارس أعمالها، وتقدم طلباتها إلى الحكومة.

ولم يكن الحصول على بدلة ردنجوت وقميص له ياقة منشاة وببيون أسود وحذاء لامع أسود أيضا من الأمور العسيرة فهذه الأشياء كلها موجودة فى سوق الكانتو فى العتبة الخضراء، وسوف يحصل عليها نقيب حكماء الأسنان الراسبين بسهولة، لأن ورثة الباشوات الذين رحلوا من الدنيا يبيعونها فى هذا السوق بتراب الفلوس.

وتم المراد من رب العباد ولكن بقيت مشكلة لابد لها من حل.

لابد من إذاعة بيان يلقيه النقيب عن طريق إحدى الإذاعات الأهلية يبين فيه أهداف نقابته بعد انتخابه، وقبل أن يتوجه إلى قصر عابدين مع أعضاء نقابته ليسجلوا أسماءهم فى دفتر التشريفات.

وكتب كامل الشناوى البيان، وبقى الاتفاق مع مندوب الإذاعة الأهلية لإذاعته.

هذا أمر هين يسير تولاه كامل الشناوى بنفسه وسوف يحضر مندوب الإذاعة الأهلية فى الموعد المحدد ومعه كل أدوات الإذاعة.

كان الاحتفال مثيرًا فقد امتلأت القهوة بأعضاء النقابة الذين اختلطوا بالزبائن. وجرت عملية الاقتراع بأوراق سرية كان كامل الشناوى يجمعها فوق منضدته. ثم تمت عملية فرز الأصوات بطريقة علنية، وحصل الدكتور النقيب على ٩٩٪ من الأصوات، وقد منحه

الشاعر الظريف لقب دكتور تكريمًا له وتعبيرًا عن الثقة الغالية التى حصل عليها من زملائه.

وجلس الدكتور النقيب فى صدر القهوة تحت مرآة كبيرة معلقة على الجدار انتظارًا لقدوم مندوب الإذاعة. والتقطت صور تذكارية لـه وهو يرتدى الردنجوت والقميص الأبيض ذى الياقة المنشاة والببيون، وكان يشرب كوبًا صغيرًا من الشاى الأخضر تيمنا بهذه المناسبة السعيدة.

وعلت الصيحات من كل جانب:

- أين الإذاعة يا أستاذ كامل؟

وفجأة دخل شاب وهو يلهث وعلى كتفه صندوق صغير من صناديق الصابون تتوسطه دائرة مفرغة مغطاة بشبكة من السلك وقد احتـوى الصندوق على أسلاك متشابكة ولمبات كهرباء محترقة، وبقـايا مخلفـات آلات تلغراف تركها الجيش البريطانى منذ الحرب العالمية الأولى، وكانت تباع على عربات يد فى ميدان العتبة الخضراء.

ووضع الشاب صندوقه، أمام كامل الشناوى على المنضدة وجلس على كرسى وهو يسترد أنفاسه المقطوعة ثم قال:

- إذاعة مصر الجديدة

فقال الدكتور النقيب:

- وهل يسمع أهالى حلوان هذه الإذاعة؟

فقال الشاب:

إذاعتنا مسموعة حتى قليوب، وقد تصل إلى بنها إذا وقفت وابورات

السكة الحديد فى المحطات، ولم تتحرك من مكانها.

ولم يفهم الدكتور النقيب العلاقة بين الإذاعة وبين قطارات السكك الحديدية ولكنه سلم أمره لله وقال موافقاً:

- كل شيء جايز..

فصاح رجل من حكماء الأسنان الراسبين فى صوت مزعج حاد:

- حتى جواز العجايز.

وعلت الضحكات حتى اهتز لها المقهى بكل ما فيه ومن فيه، فقال كامل الشناوى متسائلاً:

- هل هذه نكتة؟

ثم دعا الدكتور النقيب لإلقاء البيان، وقرب صندوق الصابون من فمه، وطلب منه أن يجعل رأسه كلها بما فيها الطربوش أمام دائرة السلك، فتأمل الرجل هذا السلك قليلاً ثم قال:

- هذا سلك منخل

فقال له الشاب مندوب الإذاعة:

نعم.. ولكنه منخل لاسلكي وهو منخل الكلام أى يجعله صافيا رقيقًا عذبًا يشنف الآذان.

ثم ساد الصمت أرجاء المقهى بعد أن صاح الشاب صيحة مدوية!

- سمع.. هس

وألقى الدكتور النقيب بيانه، ولكن كامل الشناوى هز رأسه فى أسف،

وأبدى عدم رضاه، وقال:

- أعد

فأعاد الدكتور النقيب إلقاء البيان حتى بدا الرضى والسرور على وجه كامل الشناوى وقال فى صوت فرح مبتهج:

- كفى.. كفى.. عظيم.. عظيم جدًا.

وانتهت الحفلة، ولم تكن هناك إذاعة بالطبع، ولكنها نكتة من نكت كامل الشناوى.. ثم توجه نقيب حكماء الأسنان الراسبين مع أعضاء نقابته إلى قصر عابدين وإلى مقر رياسة مجلس الوزراء فى لا ظوغلى.

بقى أن تعرف أن هذا الرجل الذى كان يكتب ويقرأ بصعوبة بالغة عين رئيسا لتحرير جريدة الشعب التى أصدرها إسماعيل صدقى باشا لتكون لسان حال حزب الشعب الذى أنشأه فى الثلاثينات من هذا القرن بعد أن ألغى دستور سنة ١٩٢٣ وأصدر دستورًا آخر فى سنة ١٩٣٠.

رحم الله صديقنا الراحل محمد زكى عبد القادر فقد ألف كتابًا عن هذا الموضوع سماه (لجنة الدستور) وكان هو أيضًا من رواد قهوة الفيشاوى لكن فى شهر رمضان.

إن القهاوى ليست لها قيمة فى ذاتها، ولكن قيمتها فى روادها. وقد كانت قهوة الفيشاوى فى جيلنا تشبه سوق عكاظ. وكان أهم ما فيها هؤلاء الرواد من الأدباء والكتاب والفنانين، وقد ملأ باعة الكتب ساحتها، وتناثرت الكتب على مناضدها مع أكواب الشاى أو فناجين القهوة.

أما قهوة شعبان فقد كانت فى ميدان الحسين رضى الله عنه. وكانت تواجه باب الجامع. وقد هدمت واندثرت. وكان أشهر نجومها المطرب

الشعبى الذى أصبح مداح الرسول صلى الله عليه وسلم.

والشيء العجيب أن محمد الكحلاوى لم يكن يجلس فى هذه القهوة بداخلها أو خارجها، ولكنه كان يجلس بالقرب من باب جامع الحسين على الرصيف، وقد أحضر المعلم شعبان الكراسى والمناضد الصغيرة له ولأحبابه الذين كانوا يحبون الجلوس معه.

وكانت بجانبه سيدة تفترش الأرض، وتضع أمامها المصاحف، وكتاب دلائل الخيرات، وغيره من الكتب الدينية التى يشملها تجارتها.

ومصاحف القرآن لاتباع، ولا يجوز فيها البيع والشراء، ولكن الذى يأخذ مصحفًا يدفع ما يطلب منه من مال يطلقون عليه اسم (الوهبة)، فإذا أردت نسخة من المصاحف الشريفة تقول لصاحبه:

– كم وهبته؟

ولا تقل له:

– كم ثمنه:

فهو لا يقدر بثمن.

وذات ليلة اختار محمد الكحلاوى مصحفًا من مصاحف السيدة التى كانت تجلس بجانبه عند ناحية جامع الحسين رضى الله عنه، وقدمه لى هدية منه، ودفع للمرأة وهبته.

كان يعلم أن الله حبب إلى اقتناء نسخ من المصاحف ما طبع منها فى مصر أو اسطنبول أو فى بلاد الصين أو غيرها ولذلك قدم لى هذه النسخة من المصحف الشريف.

أما كتاب (دلائل الخيرات) فهو من الكتب المشهورة وكانت تقام له ليلة خاصة لتلاوته، وكان الشاعر الشهير الشيخ على الليثى يقوم بهذه التلاوة لوالدة باشا وهى والدة الخديوى إسماعيل التى أمرت بإقامة جامع الرفاعى الشهير بحى القلعة أمام جامع السلطان حسن.

ودلائل الخيرات من الأدعية التى ألفها الشيخ محمد بن سليمان الجزولى، وكان هذا الدعاء يبدأ بالاستغفار ثلاث مرات، ثم الصلاة على النبى عليه الصلاة والسلام ثلاث مرات، ثم تقرأ سورة الفاتحة ثلاث مرات، وتقرأ آية الكرسى مع (فالله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين).

ثم تقرأ أسماء الله الحسنى. وبعدها تقرأ أسماء النبى ﷺ مع الدعاء فى أولها وآخرها.

ومعظم أسماء النبى عليه الصلاة والسلام التى اوردها الشيخ الجزولى صفات.

وقد كانت قراءة (دلائل الخيرات) فى قصر والدة باشا هى بداية ظهور الشيخ على الليثى الذى أصبح فيما بعد شاعر القصر فى أيام الخديوى إسماعيل.

أنا لم أحضر ليلة من ليالى (دلائل الخيرات) التى كان بعض قراء القرآن من أصحاب الأصوات يرفعون بها أصواتهم فى ليالى رمضان فى قصور بعض الأمراء أو الباشوات الأتراك فى حى عابدين، ولكننى سمعت عنها، وقد كان لدلائل الخيرات مجلس حافل له نظم وتقاليد، وتقدم فيه الحلوى والمشروبات الساخنة أو المثلجة فى الجيل الماضى.

اما قصيدة البردة وقصيدة الهمزية للبوصيرى فقد كان رواد قهوة شعبان وغيرها من قهاوى ميدان الحسين رضى الله عنه، يسمعونها فى شهر رمضان من المسجد الجامع، عندما كان ينشدهما الشيخ على محمود أعظم المنشدين فى تلك الأيام وأشهرهم على الإطلاق، وكان من عادته أن ينشد بعد صلاة العشاء فيسود الصمت أرجاء الجامع والميدان وما حولهما حتى ينتهى من إنشاده.

وفى شهر رمضان من كل عام كانت تظهر فرقة المداحين فى بعض قهاوى حى الحسين.

وكانت فرق المداحين رجالاً ونساء تنشد المدائح النبوية، وهذه المدائح فن قائم بذاته ويختلف عن فن المديح فى الشعر العربى، وقد ألف الدكتور زكى مبارك كتاباً جميلاً عن (المدائح النبوية) قال فيه: إن أشهر المداحين الذى أعجب به كان الشيخ إبراهيم الفران الذى سجل (مولد النبى عليه الصلاة والسلام) الذى كتبه (المناوى) على اسطوانة كانت تباع فى الأسواق.

وكان أشهر المداحين فى أيامى هو محمد الكحلاوى الذى أطلق عليه لقب مداح الرسول، وكان رحمه الله صديقا لطيف المعشر، وكان عذب الصوت عميق الشعور، صادق الانفعال.. كما كان من مرتادى قهوة شعبان المشهورين.

قهاوى السير الشعبية.. وفنون أخرى

لم يعد فى القاهرة قهوة واحدة من قهاوى السـير الشعبية. اختلف الزمان، ولم يعد هذا الزمن مثل أيام زمان.

كانت أرصفة القاهرة حافلة بكتب الآداب الشعبية، وكانت قهاوى القاهرة هى الاماكن التى تعرض فيهـا الآداب والفنون الشعبيـة، ولم يقتصر ذلك على القهاوى البلدية، بل كانت بعض الفنون تعرض أمام رواد القهاوى الأفرنجية مثل قهوة (بار اللواء)، (بار الأنجلو)، وقهاوى شارع فؤاد الأول (٢٦ يوليو)، وشارع عمـاد الدين، وشـارع الألفى وغيرها.

أما كتب الأرصفة فقد كنت فى صباى من هواتها. وهى كتب صغيرة رديئة الطباعة، ولها أغلفة رديئة الورق والطباعة أيضًا، وكانت تطبع فى مطابع حى الأزهر أو شارع محمد على. وتباع بملاليم قليلة تبدأ من مليمين وترتفع أحيانًا إلى عشرة مليمات حسب حجمها.

واشتهر من هذه الكتب (حكايات جحا وأبو النواس)، و (حكايات الجارية البيضا)، وكتب تضم حكايات مقتطفة من ألف ليلة وليلة أو من السير الشعبية المشهورة مثل السيرة الهلالية والظاهر بيبرس والأميرة

ذات الهمة، وعلى الزيبق، وبهاء النسا، وكانت هـذه المختارات تـراعى الإثارة العنيفة من ناحية الجنس أو البطولة أو الحيل الخارقة وغيرها.

وقد استهوتنى هذه الكتب فى سن باكرة عندما بلغت العاشرة من عمرى، وكنت أشتريها من باعة الأرصفة حتى كونت منها مكتبة خاصة كنت أخفيها فى غرفة نومى حتى اكتشفها والدى وأخذها منى وأخفاها لأنه رأى أنها كتب مفسدة للأخلاق. وأعـطانى بدلاً منهـا بعض كتب الروايات العالمية مثل رواية (الأرض) لتولستوى وكتـاب (يحكى أن) لطاهر لاشين، وغير ذلك من قصص لمؤلفين مصريين أصبحوا الآن فى عالم النسيان، وقد نسيت أنا أسماءهم.

ولم يكن والدى من أعداء الأدب الشعبى، بل كان يخشى على من هذا اللون من الأدب الفاسد فى هذه السن وقد وجدت فى مكتبته بعد رحيله، وعندما شببت كتبًا نادرة من هذا الأدب، منها كتاب لمؤلف شامى جمع فيه الأمثال المصرية، والشامية، والسودانية، التى تتشابه ألفاظها أو معانيها، وقد سبق هذا الرجل أحمد تيمور باشا فى جمع الأمثال العامية كما وجدت كتاب (ألف ليلة وليلة) باللغة العربية، ووجدت ترجمة إنجليـزية لهـذا الكتاب أيضا، كما عثرت على ملحمة (بهاء النسا أميرة البهنسا) وغيرها من كتب الأدب الشعبى.

أما آداب وفنون القهاوى فقد شاهدت منها أشكالاً تكاد تنحصر فيما يلى:

١ - بتوع رمز
٢ - الحكواتية

٣ - أصحاب القافية أو (اشمعنى) وهى الكلمة التى يستخدمونها فى حوارهم.

شعراء السيرة الهلالية والعنترية أصحاب سيرة عنترة، ولم أشاهد أو أسمع غيرهما فى قهاوى القاهرة التى عرفتها، وكنت أسعى للوصول إليها.

٤ - الأدباتية الذين يروون الحكايات الخرافية مع استخدام طبلة صغيرة يدقون عليها، ويبدأ الواحد منهم حديثه بقوله (أنا الأديب الأدباتى).

وقد كانت هذه الفنون مثل غيرها من فنون الغناء والرقص والتمثيل، لا تحظى باحترام المجتمع فى الجيل الماضى، ولذلك لم أستطع الاقتراب من قهاوى هذه الفنون إلا بعد أن وصلت إلى مرحلة الدراسة الجامعية.

كان فى حى عابدين، وهى الحى الذى كنا نقيم فيه، كما كان فى حى معروف الذى تقيم فيه بعض أقاربنا، قهاوى كثيرة فيها شعراء للسيرة الهلالية، ولكن كان يحرم على فى طفولتى وصباى الأقتراب منها لا الجلوس فيها، وكان يقال لى: إنه لا يجلس فى هذه القهاوى إلا طائفة من الحشاشين أو الذين يتعاطون الأفيون من الرعاع، فكنت أقف قليلاً عند أبوابها، وأسمع شاعر الربابة ثم أنصرف سريعًا حتى لايرانى أحد فيبلغ أهلى بذلك، فتحدث المحاسبة التى لا تحمد عقباها، كما أننى ا أشاهد أحدًا من عائلتى يجلس فى قهوة من هذه القهاوى البلدية فزاد إقتناعى بأن الذين كانوا يجلسون فيها من الرعاع، وهى فكرة خاطئة أدركت خطأها بعد أن أصبحت طالبًا فى الجامعة، وبعد أن أصبح المجتمع

ينظر إلى بعض الفنون كالمسرح، والسينما، والغناء نظرة احترام، ولكنه كان ما زال ينظر إلى فنون أخرى نظرة فيها بعض الازدراء، ولعل سبب ذلك هو الطبقية التى كانت سائدة فى المجتمع حينذاك مع وجود عادات وتقاليد لكل فئة من فئات هذا المجتمع.

كانت الأرستقراطية التركية، والشركسية تمثل جنسًا من الأجناس المستبدة الحاكمة، وهى طبقة فيها الأغنياء القادرون من أصحاب القصور، وفيها أيضًا الفقراء المحتاجون من باعة الدندرمة فى عربات صغيرة أو باعة البسبوسة والأرز باللبن فى حوانيت صغيرة أيضًا. وكان لهذه الطبقة تقاليد دينية خاصة بهم، ولا يشاركهم فيها أبناء البلد من المصريين مع أنهم جميعًا مسلمون.

وكان لهؤلاء الأتراك تكايا فى القاهرة تضم جماعة من المتصوفة يطلق عليهم المصريون اسم (تنابلة السلطان) وكانوا يقيمون حفلات ذكر يرقصون فيها رقصات خاصة بهم.

كما كانت الطبقة الوسطى فى المجتمع من أبناء البلد، ومعظمهم من التجار وأصحاب الأملاك الزراعية أو العقارية، أو علماء الأزهر الكبار والمتعلمين من أصحاب المناصب الذين ظهروا منذ عصر محمد على، وكان هؤلاء أصحاب تقاليد وعادات أخرى.

أما الطبقة الشعبية من الحرفيين، والعمال فهؤلاء أيضًا يمارسون حياتهم بطريقة مختلفة ولهم أيضًا عاداتهم وتقاليدهم.

وقد تأثرت الفنون والآداب الشعبية بهذا البناء الاجتماعى. وقد ظهر ذلك واضحًا فى شخصية عبد الله النديم، الذى بدأ حياته أدباتيا يرفه عن

الباشوات فى مجالسهم، ثم أنشأ جريدة التنكيت والتبكيت، وعندما انضم إلى جماعة الشيخ جمال الدين الأفغانى، ثم أصبح من كبار أعوان الثورة العرابية، ترك كل هذه الأمور، وأصبح خطيب الثورة وكاتبها، واستبدل له عرابى باشا، والشيخ محمد عبده اسم جريدته (التنكيت والتبكيت) إلى اسم جديد، ومفهوم جديد، وأصبح اسم جريدته هو (الطائف).

وهذا هو ما حدث فى المسرح بعد ذلك، فقد رفعه من هوة الانحدار ظهور (محمد بك تيمور) كممثل ومؤلف مسرحى، وقد فضل هذا العمل على وظيفة تشريفاتى السلطان فى قصر عابدين، ثم انضم إليه عبد الرحمن رشدى المحامى الممثل، وإسماعيل وهبى المحامى ورئيس جمعية ترقية التمثيل ثم شقيقه يوسف وهبى، النجم المسرحى الكبير.

هذه لمحة خاطفة جاءت عرضًا لبيان العلاقة بين المجتمع والفن.

وسأحدثك عن فنون القهاوى التى عرفتها أو شاهدتها قبل الحديث عن موضوع السير الشعبية التى كانت من أهم فنون القهاوى فى الجيل الماضى.

١ - بتوع رَمَز:

لا أدرى من أين جاءت هذه التسمية لهؤلاء البهلوانات من الرجال والنساء الذين كانت لهم أزياء صارخة الألوان. وكانوا يقومون بعمل ما كياج لوجوههم بالأصباغ والألوان.

ثم يؤدون حركات تشبه حركات الأكروبات على أبواب القهاوى. مع

قولهم لبعض العبارات التى تحكى حكاية قصيرة هى فى الغالب حكاية خيالية.

لعل اطلاق اسم (رَمَز) على هذه الفئة يرجع إلى أنهم كانوا فى حكاياتهم يستخدمون أسلوب الرمز، وهى غالبًا حكاية غرامية مجهولة ليس لها أول ولا آخر، ولكنها ترمز إلى حالة المجتمع فى ذلك العصر، أى أنها تعالج المشكلات التى كانت تواجه الناس مثل ارتفاع أسعار الطماطم أحيانا عندما يطلبها المشترون فى غير موسمها حتى ينادى عليها الباعة بالعبارة المشهورة:

- مجنونة يا قوطة.

كما كان (بتوع رمز) وهى فى العادة. فرقة تتكون من رجل وامرأة، يعرضون على المشاهدين أثناء قيامهم بالتشقلب على طريقة الأكروبات مشكلات يعانى منها المجتمع مثل الامتيازات الأجنبية التى كانت تقلق حياة أهل القاهرة عندما يستبد بهم الأجانب.

ومن ذلك أن الأجنبى الذى كان يسكن فى شقة مملوكة لأحد أبناء البلد لا يخرج منها بسهولة، ولا يدفع الإيجار، ويحتمى بالمحاكم المختلطة، التى كانت عسيرة المنال، فيمثل (بتوع رمز) هذه الحالة بالحركات التمثيلية، مع تبادل كلمات قليلة تؤدى هذا المعنى.

الرجل: واحد خواجه سكن فى شقة.

امرأة: يطلعوه منها بماشة.

الرجل: ولا بكماشة.

وفى مشهد آخر عن شركة المياه وكانت شركة أجنبية.

الرجل: مدير كوبانية الميه ركب على كل حنفية قربة.
امرأة: وشالها علي ضهره.
الرجل: وقال.. يعوض الله.

وفى نهاية كل مشهد من هذه المشاهد التمثيلية القصيرة كان بتوع رمز يطوفون بزبائن القهوة لجمع بعض العملات الصغيرة التى يتصدق بها بعض الزبائن، وكان هؤلاء الممثلون من أهل هذا الفن ظرفاء فرديين، لا يطيلون الوقوف أمام الزبون الذى لا يدفع، فيتوجهون إلى غيره وهم يبتسمون فى رضى وقناعة.

لم يحاول أحد - فيما أعلم - أن يسجل المسامع التمثيلية التى كان ينطق بها (بتوع رمز) وهى قليلة، فقد كانت معظم هذه الفرق تفضل التمثيل الصامت عن طريق أداء الحركات فى براعة فائقة تصور أحياناً مشاهد الغرام العنيف أو القلق والمتاعب التى يلاقيها الناس فى حياتهم، فيرتسم الحزن والأسى على وجوههم عندما يصورون مشاهد ابتزاز الأموال أو الضرب والإهانة والسجن بعد وضع كلبشات الحديد فى أيدى المقهورين المظلومين. إلى غير ذلك من مشاهد تمثيلية متحركة.

٢ - الحكواتية:

كانت شخصية الحكواتى من شخصيات القهاوى البلدية فى القاهرة، وهى شخصية كانت تتكرر فى قهاوى بلاد الشام فيما أعلم، ولكن الحكواتى كان يحكى الحكايات التى تتناسب مع زمانه ومع بلده وظروف مواطنيه.

وقد ظهرت انعكاسات الحكواتى فى فلسطين بعد الانتفاضة الأخيرة ضد الاحتلال الإسرائيلى؛ وتأكد أن هذا الشكل من أشكال الآداب الشعبية عميق الجذور فى حياة الناس.

ونرجع بشخصية الحكواتى إلى شكل قديم من أشكال الأدب العربى وهى شخصية القصاص التى تحدث عنها الجاحظ، فقد كان القصاصون يقومون بالدور الذى يقوم به الحكواتية، وهى رواية الحكايات أمام الجماهير بطريقة تمثيلية تستخدم فيها جميع وسائل الفن التمثيلى من ناحية الثياب والأدوات والحركات فقد كان يشترط فى القصاصين فى الزمن القديم، أن يكون الواحد منهم طويلاً حسن الوجه جهورى الصوت يحسن الكلام من ناحية القصاصة وصحة النطق من ناحية مخارج الحروف، أى أنه لا يجوز أن يكون ألثغ، أو ثقيل اللسان يتهته، أو يتلكأ فى النطق، إلى غير ذلك من العلل الجسدية، أو اللسانية، كما كان القصاص حسن النبرة جميل الثياب، وكان يشترط فيه أيضًا إتقانه للإمساك بالعصا، وتحريك اليد، وغير ذلك من الحركات التمثيلية.

وقد تندر الجاحظ ببعض هؤلاء القصاصين فى عصره، فقال إن أحدهم سأل جمهوره:

– هل تعرفون اسم الذئب الذى أكل يوسف؟

فقال له واحد من السامعين:

– ولكن الذئب لم يأكل يوسف.

فقال له القصاص:

– هل تعرف اسم الذئب الذى لم يأكل يوسف؟.

وظاهر مما رواه الجاحظ أن القصاص، كان يقص القصص وكان فى نفس الوقت يدخل فى حوار مع جمهوره.

وهكذا كان يفعل الحكواتى فى قهاوى القاهرة، والفارق الوحيد هو أن القصاص كان يروى قصصه وهو واقف فوق مكان مرتفع فى ميدان، أو أمام مسجد، أو على ناصية شارع، بينما كان الحكواتى يحكى حكاياته وهو جالس على دكة فى القهوة.

وكان جمهور الحكواتى يشترك معه فى الحكاية عن طريق السؤال. أو يستحثه لإكمال حكايته إذا اشتدت الإثارة.

وقد شاهدت أحد الحكواتية فى قهوة بلدية بحى السيدة عائشة رضى الله عنها فى أواخر الثلاثينات، وكانت هذه الطائفة فيما يبدو قد أخذت فى الانقراض، وكان معى فى هذه الزيارة زميلى وأخى الدكتور حسن ظاظا وكنا فى شبابنا صديقين متلازمين نسعى معًا إلى المعرفة.

كان هذا الحكواتى لا يفترق عن زبائن القهوة من أبناء البلد حتى خيل إلى أنه واحد منهم، كما بدا لى أنه يحكى حكايات عن نوادر الحشاشين، لأنه حكى حكايتين من هذه النوادر التى كان بطلها قراقوش.

كانت هناك كتب عديدة رائجة على أرصفة القاهرة تحمل اسم (نوادر الحشاشين)، وكان هناك كتاب أيضًا من هذه الكتب الشعبية عنوانه (نوادر المغفلين).

ولكن الحشيش والأفيون كانا من المخدرات المعروفة فى مصر قبل ظهور الكوكايين فى الحرب العالمية الأولى، وأعتقد بعض المصريين أن الحشيش ليس محرمًا مثل الخمر، ولا أدرى من الذى أفتاهم بذلك، وقد

رأيت فى بعض كتب الأدب المصرى أشعارًا تمدح الحشيش، وكانوا يطلقون عليه اسم (الحشيشة)، كما كان الأدباتية يذكرونه فى كلامهم، ومن الأمثال الشعبية المأثورة قولهم:

- يطلع عليه حشيشة.

أى أنه يخرج عن صوابه، لأن الحشاش يتصرف دائمًا تصرفات غير طبيعية.

ولم تكن عقوبة تدخين الحشيش من العقوبات الجسيمة فى الجيل الماضى، بل كان يكتفى بإغلاق القهوة التى تقدمه للزبائن لمدة محدودة.

كما كان للحشاشين أماكن خاصة يجتمعون فيها وأظنها ما زالت موجودة، ويطلقون عليها اسم (غرزة) وهى مكان حقير لتدخين الحشيش.

أما الأفيون فقد كان مباحًا فى الجيل الماضى، وكان يُباع فى بعض الدكاكين الصغيرة، وقد شاهدت دكانًا منها فى عابدين، وكان صاحب الدكان يزنه فى ميزان صغير جميل مثل ميزان الذهب، وكانوا يستخدمونه فى علاج بعض الأمراض على أنه من الأدوية الشعبية، كما كان الأفيونجية يستخدمونه كمخدر.

وقد اقترنت نوادر الحشاشين بشخصية قراقوش فى الحكايات التى سمعتها من الحكواتى فى قهوة السيدة عائشة، وقد اعتقدت أن قراقوش يمثل سلطة القهر والظلم والاستبداد والمعاناة عند الشعب المصرى، وهم يسخرون منه للتنفيس عن أنفسهم. وقد بدأت حكاياته تروى منذ عهد صلاح الدين الأيوبى، حتى عهد قريب، أى امتدت مئات السنين، وقد

ظهر ذلك فى أعمال سينمائية ومسرحية خلال السنوات الماضية.

ويعتبر كتاب (الفاشوش فى حكم قراقوش) الذى ألفه (ابن مماتى) فى عهد الدولة الأيوبية، عن نوادر بهاء الدين قراقوش، ونشره الأستاذ الدكتور عبد اللطيف حمزة، أستاذ الصحافة فى جامعة القاهرة منذ سنوات، الكتاب الوحيد الذى يحوى نصوصًا مكتوبة عن هذه الطرائف القراقوشية.

وقد تكون هذه النوادر من تأليف ابن مماتى، وقد تكون مما جرى على ألسنة الناس فى عصره، مما يدخل فى الفولكلور، أو الأدب الشعبى، شأنها فى ذلك شأن المرويات التى لا يعرف أصحابها، ولكنها تؤلف عن طريق الشخصيات المجهولة، وتنسب إلى بطلها الشعبى بهاء الدين قراقوش على سبيل السخرية اللاذعة، والتهكم المر، وهى أشبه بالنكت التى تنتشر فى عصر من العصور بصورة معينة، ولا يعرف لها قائل، بل تنسب إلى الشعب لأننا نجهل قائلها. وأصدق مثال على ذلك النكت اللاذعة المريرة التى كنا نسمعها بعد هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧، ولكن هذه النكت تندثر وتزول بعد زوال عصرها والمناسبات التى قيلت فيها، ولا تصبح من الآداب الشعبية، لأنها لا تبقى فى ضمير الشعب، وهو قائلها، وهو فى نفس الوقت المتلقى لها.

هناك فارق بين النكتة وبين الحكاية الساخرة اللاذعة من ناحية البناء الأدبى الفنى، وهما تشتركان فى عنصر السخرية والتهكم، ولكنهما تختلفان فى التصوير الفنى، فالنكتة حكمة سريعة لاذعة لا حكاية، ولها شخصية، تمثل الحكاية وتصورها. ولها أيضًا مناسبة تقال فيها، وقد اشتهر المصريون

بالنكتة التى يقصد بها الإضحاك مثل قولهم:

● يحموك فى كنكة.. أى أن المتحدث إليه ضئيل الحجم إلى حد أنه يستحم فى إناء القهوة الصغير الذى نسميه الكنكة.

● يربطوا شنبك بفتله.. أى أن شارب الذى تتحدث عنه النكتة منفوش ومبعثر على صفحة وجهه ويحتاج إلى خيط يربط به.

وقد تكون النكت لطيفة وقد تكون سخيفة مثل قولهم:

- واحد جه يقعد على قهوة قعد علي شاى.. ويقصد بها أن شخصًا أراد الجلوس فى المقهى الذى هو القهوة فى اللهجة العامية، فاستخدم صاحب النكتة كلمة شاى بدلا من كلمة قهوة لسخافته.

وقد نختلف أو نتفق من ناحية قيمة النكتة كمأثور شعبى، وسبب ذلك أن النكتة كفن قولى، قد يؤلفها مؤلف محترف، أو ينطق بها شخص معروف بخفة الدم من أمثال شاعر النيل حافظ إبراهيم، أو الشيخ عبد العزيز البشرى أو محمد البابلى من مشاهير الظرفاء فى الجيل الماضى، وقد احترف حرفة تأليف النكت كتاب مشهورون، من أمثال حسين شفيق المصرى، ولذلك لا تعتبر من المأثور الشعبى، بل هى لون من ألوان التأليف الأدبى باللهجة العامية ولذلك اشتبه الأمر فيها لاعتقاد بعض الناس، أن الآداب الشعبية هى التى تكتب باللهجة الشعبية، أى اللهجة العامية، وهذا خطأ فادح فى أساس مناهج دراسة الأدب الشعبى الذى يكون فصيحًا بلغة عربية فصحى، ويكون أيضا عاميًّا بلهجة من اللهجات العامية.

وقد كانت الصحافة الفكاهية فى الجيل الماضى حافلة بالنكت اللاذعة

المضحكــة، التي يؤلفهــا المؤلفــون، وهى ليست من الأدب الشعبى، ولا تدخل فى باب الآداب الشعبية، لأن هؤلاء المؤلفين كانوا يلتقطونها من ألسنة العامة فى المقاهى والشوارع، ثم يعيدون صياغتها لتصبح صالحة للإضحاك، كما يفعل الذين يؤلفون النكت لأصحـاب الفن ممن نسمى الواحد منهم منولوجست.

ولكن الحكايات الساخرة اللاذعة فن آخر غير فن النكتة على كل حال، وأشهرها حكايات جحا، وحكايات قراقوش، ولكن جحا شخصية أسطورية، أما قراقوش فهو شخصية واقعية.

هناك جحا التـركى، وجحا المصـرى، وجحا المغـربى، ولكن هناك قراقوش واحد معروف فى التاريخ، وهو الطواشى بهاء الدين قراقوش، الذى كلفه السلطان صلاح الدين يـوسف بن أيوب فى سنـة ٥٦٩ هـ (١١٧٣م) ببناء سور القاهرة، ثم بناء قلعة الجبل الشهيرة.

وأذكر أننى عندما أصدرت سلسلة (كتب ثقافية) فكـرت فى إعداد (حكايات جحا) على أن يكون هذا الكتاب، هو الأول فى هذه السلسلة، وطلبت من الصديق الراحـل زكريـا الحجاوى، تصنيف هـذا الكتاب، وقدمت إليه بعض الكتب عن نوادر جحا لإعادة كتابة هذه الحكايات بـأسلوب عصرى رشيق. وكـان زكريـا الحجاوى أديبًـا شعبيًـا رشيق الأسلوب، فصاغ حكايات جحا بأسلوبه، وصدر الكتاب الـذى نفدت طبعته الأولى يوم صدوره، وكتب عنه صديقنا أنيس منصور مقالاً لطيفًا ظريفًا، فى جريدة الأخبار كان عنوانه: جحا سرقوه.

المهم فى هذه الحكاية أننى أردت أن أضع اسم زكريا الحجاوى على

كتاب (حكايات جحا) كمؤلف للكتاب فرفض الأديب الفنان الشعبى كتابة اسمه، وقال لى: إن هذه الحكايات ليست من تأليفه، ولكنها من الأدب الشعبى، وأن مؤلفها هو الشعب، ودارت مناقشة طويلة حول هذا الموضوع حتى أقنعنى زكريا الحجاوى بوجهة نظره، وصدر الكتاب بلا مؤلف.

ولذلك فإننى أعتقد أن كتاب (الفاشوش فى حكم قراقوش) الذى ينسب إلى ابن مماتى ليس من تأليفه، ولكنه يضم حكايات سمعها ابن مماتى وكيفها حتى نشر الدكتور عبد اللطيف حمزة كتابه فى سلسلة (كتاب اليوم)، منذ سنوات، وهذا الرأى لا يقلل من قيمة ابن مماتى الذى كان له الفضل فى تسجيل هذه الحكايات القراقوشية الذى اعتقد الدكتور حمزة أنها من تأليفه.

لقد ظلت شخصية جحا، وشخصية قراقوش، تعيشان فى وجدان الشعب حتى ألفت عنها مسرحيات وصورت أفلام، من أشهرها مسرحية (مسمار جحا) لعلى أحمد باكثير، و(حكم قراقوش) لنجيب الريحانى، وهذه ناحية ترتبط بفن المسرح، والسينما، مما يحتاج إلى دراسة عن أثر الفنون الشعبية فى فنون السينما والمسرح على وجه الخصوص.

ولكن حكايات قراقوش، ظلت تروى على ألسنة الناس فى القاهرة فى الجيل الذى انتسب إليه حتى نهاية الأربعينات. من هذا القرن، أى أنها عاشت فى وجدان الشعب كمأثورات شعبية مروية حوالى ثمانية قرون من الزمان.

وهذه المرويات الشعبية لم يسجلها أحد كما سجل ابن مماتى ما سمعه

فى عصره عن قراقوش، ويرجع ذلك إلى عدم الاهتمام بالأدب الشعبى بدرجة كبيرة فى الجيل الماضى، ولعلها سجلت ونشرت فى كتب رخيصة كانت تباع على الأرصفة فى القاهرة، وكانت هذه الكتب تباع بملاليم لا بقروش، وكنا نرى أنها كتب تافهة لا تستحق الاحتفاظ بها، وكنت فى صباى قد جمعت مجموعة منها كنت أستمتع بقراءتها خفية، ولما عثر عليها والدى أخذها ومزقها، ومنعنى من قراءتها وعوضنى عنها بكتب الأدب الرفيع مثل كتب (المنفلوطى)، وقصص (طاهر لاشين) أحد رواد القصة القصيرة، الذى نسيه النقاد ونسيه القراء أيضًا.

أما حكايات قراقوش فقد كان يرويها بعض أبناء البلد الظرفاء، وكنا نسمعها منهم فى القهاوى البلدية، التى كنا نرتادها على حذر لنسمع شعراء الملاحم الشعبية المشهورة مثل السيرة الهلالية، وعنترة والأميرة ذات الهمة، وغيرها، وكان فى القاهرة قهوات معروفة يجلس فيها شاعر من شعراء الربابة كل ليلة يروى ملحمة من هذه الملاحم. وكانت لهؤلاء الشعراء شهرة ذائعة، فكان هناك شاعر فى حى القلعة تخصص فى سيرة عنترة، وشاعر آخر فى قهوة داخل حارة العتبة بشارع محمد على، يحكى حكاية الأمير ذات الهمة، وثالث فى عابدين تخصص فى السيرة الهلالية، ورابع فى حى معروف، يروى السيرة الهلالية باللغة العربية واللغة اليونانية أيضًا، حيث كان بعض رواد المقهى من اليونانيين، فكان يترجم لهم الحكاية بلغتهم على أنغام الربابة.

فى هذه القهاوى البلدية كنا نسمع بعض حكايات قراقوش وهى الشخصية المحورية فى كل حكاية، ويبدو أن رواة هذه الحكايات كانوا من

الأشخاص الذين نطلق عليهم لقب الحشاشين، والله أعلم بأمرهم. ولكنهم كانوا ظرفاء وبسطاء كما قلت لك.

ويبدو أن رواة حكايات كتاب (الفاشوش) كانوا من هذه الطبقة، ومن هذه الحكايات، أن الأمير قراقوش كان جالسًا فى قصره، وقد نشروا الغسيل فوق السطح، ثم هبت الريح فانقطع حبل الغسيل وطارت الملابس المغسولة فى الهواء ثم سقط جلباب لقراقوش فى ساحة القصر، فلما رآه قراقوش قال لرجاله:

- الحمد لله أننى لم أكن مرتديا لهذا الجلباب وإلا وقعت من فوق السطح وانكسرت رقبتى.

ومن حكايات كتاب (الفاشوش) حكاية الباب الذى كان يوشوشه قراقوش، وخلاصة هذه الحكاية أن اللصوص هاجموا منزلاً وكسروا بابه وسرقوا منه أشياء ثمينة، فذهب أصحاب البيت يشكون إلى قراقوش فسألهم:

- هل عندكم شهود؟

فأجابوه قائلين:

- كلا أيها الأمير فإن أحدًا لم ير اللصوص لأنهم هربوا بالمسروقات، فطلب منهم قراقوش أن يحضروا إليه باب البيت ليسأله، فأحضروا له الباب بعد أن خلصوه من مكانه، ولما وضع الباب أمامه فى إحدى قاعات قصره، قام من مجلسه وجعل يوشوش الباب، فسألوا:

- ماذا تصنع أيها الأمير؟

فقال لهم قراقوش:

– اسأل الباب ليخبرنى عن اسم اللص الذى سرقكم حتى أقبض عليه.

وهناك حكايات كثيرة من هذا النوع فى كتاب (الفاشوش) وكلمة (فاشوش) فى اللهجة العامية المصرية تعنى الوصول إلى لا شىء، ويقال عن الأمر الذى لا جدوى منه ولا نتيجة له: إنه طلع فاشوش، ويطلق اسم (مفش) أيضا على الشخص الذى لا فائدة منه، وكلمة (فش) عربية فصيحة ويقال فش القربة مثلا بمعنى أخرج منها الريح أو الهواء، وهو ما نعبر عنه فى اللهجة العامية، بأنه طلع فاضى، أو فاشوش أى أن ما بداخله هواء.

ومن حكايات قراقوش التى لم يسجلها كتاب الفاشوش وسمعتها من الرواة، حكاية الحشاشين الذين اتخذوا لهم مقامًا فى سفينة على شاطئ بولاق، وكانت بولاق هى ضاحية القاهرة، وقد ذكر الجبرتى أنها كانت منتزه القاهرة، وفيها أماكن اللهو والسهر والغناء والطرب، كما كانت متعة أهل القاهرة، هى ركوب المراكب السابحة على صفحة النيل للنزهة، حتى إن الشعراء أصحاب الأغانى كانوا يطلقون على دواوين أغانيهم اسم (السفينة) وكان لكل شاعر منهم سفينة من أشهرها (سفينة شهاب) التى جمع فيها أغانى مصر والشام فى عصر محمد على، وهى أهم مجموعة للأغانى ظهرت فى العصر الحديث، وصاحبها هو الشيخ محمد شهاب الدين الشاعر الرسمى لدولة محمد على، والنديم الشخصى لعباس باشا الأول. وقد نظم الشيخ شهاب قصيدتين كتبتا بماء الذهب فوق شبابيك جامع محمد على بالقلعة من الداخل والخارج وعدد أبيات كل قصيدة

يساوى عدد شبابيك الجامع.

ويبدو أن هذه المجموعات الغنائية سميت باسم السفن، لأن السفينة هى مكان الغناء والطرب والانبساط.

أما سفينة قراقوش فقد كانت لها قصة.

كان جماعة من الحشاشين قد اجتمعوا فى سفينة عند شاطئ بولاق، وفاجأهم قراقوش وجنوده فارتبكوا، وألقوا أدواتهم فى نهر النيل، وجلسوا فى أدب جم، ثم بدءوا يحركون أيديهم فى الهواء وكأنهم يقومون بأعمال نسيج أقمشة، وأمامهم نول ينسجون عليه، فلما رآهم قراقوش تعجب من أمرهم، وسألهم:

- ماذا تصنعون فى هذا المركب؟

فقالوا:

- نحن عمال نسيج يا مولانا الأمير.. ونحن ننسج قماشًا لا مثيل له فى كل الدنيا.

وفرك قراقوش عينيه وقال لهم:

- وأين أثواب الأقمشة التى نسجتوها؟

فقال كبيرهم:

- ها هى أثواب القماش يا مولانا الأمير.. هنا فى ركن المركب.

وتعجب قراقوش لأنه لم ير فى السفينة نولاً ولا قماشًا ولا خيوطًا، ولكن كبير الحشاشين أسرع فتقدم إلى قراقوش وبدا وكأنه يحمل بين يديه ثوبًا من القماش، ثم بادره قائلاً:

- هذا القماش يا سيدى الأمير أمره عجيب وغريب.

فقال قراقوش:

- كيف كان ذلك؟

قال الرجل:

- لو صنع أحد ثيابه من هذا القماش لا يراه وهو يرتديها إلا أولاد الحلال فقط، أما أولاد الحرام فإنهم لا يستطيعون رؤيته فتعجب قراقوش من هذه الحكاية، وأبدى استغرابه، ولكن الرجل استمر فى كلامه فقال:

- ونحن قد صنعنا هذا القماش يا سيدى لك ولأمثالك من الأمراء العظام، ليفصلوا منه ثيابهم حتى لا يراهم أولاد الحرام من القتلة والمجرمين.

ثم قدم أطراف القماش للأمير قراقوش حتى يلمسه ويفحصه، وسأله:

- هل أعجبك القماش يا سيدى الأمير؟

قال قراقوش:

- هذا قماش عظيم وسأصنع منه ثيابى.

ثم ضحك راوى الحكاية وقال:

- هل معقول أن يقول قراقوش إنه لم يلمس القماش ويفحصه حتى يصبح هو نفسه من أولاد الحرام؟.

والحرام والحرامية فى الأدب الشعبى ليس معناها الحرام اللغوى أى الشىء المحرم الذى هو ضد الحلال، بل إن لها معنى آخر، فقد كانت فى مصر قبيلتان إحداهما تسمى بنى سعد، والأخرى بنى حرام.

وكان بنو سعد من الشرفاء الذين يغيرون على القرى ويسرقون البهائم والمحاصيل وغيرها، ولذلك أطلق عليهم اسم الحراميه أى

اللصوص. وكلمة الحرامى تستخدم فى اللهجة العامية المصريه بمعنى اللص. وأولاد الحرام هم الأشرار، أما أولاد الحلال فهم الأخيار الأطهار.

أما حكاية زواج بنت قراقوش فإنها من لطائف الحكايات، فقد كان للأمير قراقوش ابنة بلغت سن الزواج، وتكاثر خطابها على الباب، طمعًا فيها، ورغبة فى الاحتماء بسلطة أبيها، فاشترط قراقوش شرطًا على من يزوجه بابنته، وكان هذا الشرط هو أن العريس يعطى سبعة أرانب ويذهب بها إلى جبل المقطم حيث يظل تحت الحراسة سبعة أيام فإذا عاد الأرانب السبعة بعد انقضاء الأيام السبعة يزوجه بابنته، وإذا لم يعد بها، أو عاد بها ناقصة فجزاؤه أن تقطع رقبته بالسيف لأنه تجرأ وطلب يد الأميرة وهو غير كفء لها.

وجرت المباراة الرهيبة بين عرسان بنت قراقوش، ولم يستطع واحد منهم الاحتفاظ بالأرانب السبعة لمدة سبعة أيام فى جبل المقطم، بل كانت الأرانب تجرى منهم وتهرب منذ اليوم الأول، وطارت رؤوس بعض هؤلاء العرسان بالسيوف، وهرب بعضهم من بطش قراقوش بالجبل.

ثم ظهر فى المدينة شاب مغامر طلب يد الأميرة وقال للأمير قراقوش: إنه سينفذ له الشرط الذى اشترطه، فأعطاه سبعة أرانب وأرسله إلى جبل المقطم تحت حراسة الجند، وحذره من سطوة السيف إذا عجز عن الوفاء بالشرط.

وكان هذا الشاب قد أعد حمارًا حمل على ظهره كمية هائلة من حزم البرسيم، وأخذ مع طعامه وشرابه، وحمل قربة ماء أيضًا، ثم وضع الأرانب على ظهر الحمار، وصعد إلى جبل المقطم.

وفى اليوم الأول أعد الشاب، حزمة برسيم لإطعام الأرانب، ووضع لهم الماء فى إناء ليشربوا، وكان قد حشا أعواد البرسيم بالمخدر كلها أكلته الأرانب نامت بجانبه، وظل يكـرر هذا طـوال الأيام السبعـة، ثم عاد بالأرانب كاملة إلى قراقوش الذى عجب من أمر هذا الشاب، وأراد أن يعرف كيف استطاع أن يحتفظ بالأرانب فوق الجبل، ولماذا لم تهرب منه؟.

وأجلس قراقوش خطيب ابنته الذى فاز فى المباراة إلى جانبه. وجعل يحادثه، ويتلطف معه، ثم قال له:

– أخبرنى كيف استطعت أن تحافظ على الأرانب السبعة لمدة سبعة أيام فوق جبل المقطم فلم تهرب منك؟.

فقال الشاب:

– سأخبرك يا سيدى الأمير عن الحكايـة من البدايـة إلى النهايـة بشرط. ثم أخرج الشاب من كمه مغزلاً وكمية من الصوف المنقوش.

فقال له قراقوش؟

– ما هذا؟ وماذا تريد أن تفعل؟.

قال الشاب:

– سأغزل الصوف يا سيدى الأمير لأصنع لك طـاقية عـلى سبيل الهدية بمناسبة خطبتى للأميرة، فأنا رجل فقير لا أملك إلا هذا الصوف الذى جززته من خروف عندى سأذبحه أيضًا فى ليلة الزفاف.

وتعجب قراقوش من حكاية الخروف والصوف، وأمسك بيديه كومة الصوف، ثم وقف الشاب بين يديه، وبدأ يغزل حتى أتم غزل الصوف،

وأصبح خيطًا ملفوفًا على المغزل، وظل قراقوش ينظر إلى عريس ابنته فى دهشة.

وقال الشاب للأمير قراقوش وهو يناوله أول الخيط:

- لو سمح سيدى الأمير بأن يمسك الخيط بيده ولا يتركه ولا يقوم من مكانه حتى أخرج أنا من هنا وأصنع الطاقية ثم أعود.

وأمسك قراقوش بأول الخيط، وبدأ الشاب يدير المغزل ويفك الخيط حتى خرج من القاعة، ثم ظل يسير فى ردهات القصر حتى وصل إلى الباب، وكانت فى يده نهاية الخيط، فأخرج من جيبه قطعة من الشمع، وألصق نهاية الخيط فى الباب وانطلق هاربًا.

وظل قراقوش جالسًا فى مكانه وبيده أول الخيط، وطال انتظاره لعودة الشاب عريس ابنته، وانتهى النهار وأقبل الليل. فضج قراقوش وصاح برجاله:

- اذهبوا وانظروا أين ذهب هذا الشاب؟

فخرج حراس قراقوش من القاعة يبحثون عن العريس فى كل مكان فى القصر حتى وصلوا إلى الباب، فوجدوا نهاية الخيط ملصقًا عليه بالشمع، وعادوا إلى قراقوش، وقالوا له:

- لقد شمع الشاب الفتلة يا مولانا الأمير.. وهرب.

ومنذ ذلك التاريخ أصبح من الأمثال المصرية مثل يقول (فلان شمع الفتلة) أى أنه جرى وهرب.

لقد سمعنا فى جيلنا حكايات كثيرة عن قراقوش، ولكننا لم نهتم بها أو تدونها كما فعل ابن مماتى صاحب كتاب (الفاشوش)، وقد رويت لك

حكايتين تذكرتها من هذه الحكايات التي سمعتها.

ولكن.. لماذا تعرض الأمير بهاء الدين قراقوش لهذه السخرية اللاذعة من الشعب المصرى؟

كان قره - قوش من أشهر الشخصيات فى عصر السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى (٥٦٧ - ٥٨٩ هـ ١١٧١ - ١١٩٣م) وهو خصى حبشى، ولذلك يلقب بلقب (الطواشى)، واسمه بهاء الدين، أما قره - قوش فمعناه النسر الأسود، فكلمة (قره) التركية معناها أسود و (قوش) معناها نسر. ويبدو أن السلطان صلاح الدين هو الذى أطلق عليه هذا اللقب، فقد كان شعار صلاح الدين الأيوبى هو النسر الذى نقشه على جدار باب القلعة، وعندما قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وغيرت العلم المصرى الأخضر ذى الهلال والنجوم الثلاثة إلى علم الثورة المثلث الألوان أى الأسود والأبيض والأحمر، وكان لابد من وضع شعار عليه، قامت مصلحة الاستعلامات التى كنت أتشرف بالعمل فيها لتصوير نسر صلاح الدين المنقوش على جدار باب القلعة، ونقلناه بخطوطه الفنية المرسومة كما هو، وأصبح هو الشعار المرسوم على العلم الجديد.

وقد عرفت مصر هذه الشعارات التى كانت توضع على أسلحة الجيش وملابس الجند وخوذاتهم وأعلامهم، وقد كان شعار السلطان المنصور قلاوون هو الأسد، وقد نقشه بالذهب على باب النصر فى القاهرة.

واشتهر النسر الأسود أى قره قوش أو قراقوش شهرة ذائعة بسبب قيامه بإنشاء قلعة القاهرة وسورها، وورد اسمه فى كل الكتب العربية والأفرنجية، التى تحدثت عن قلعة الجبل أو قلعة صلاح الدين فى القاهرة،

ولكننا لا نجد ترجمة لسيرة حياته فى هذه الكتب أو الكتب التى ألفت عن الدولة الأيوبية وزعيمها السلطان صلاح الدين.

ويبدو أن قراقوش كان صاحب همة عالية وإرادة حديدية، وقد ذكر على باشا مبارك أنه كان يستخدم خمسين ألف أسير فى عمليات البناء الهائلة، التى مازالت تحدد معالم القاهرة ابتداء من سور مجرى العيون عند فم الخليج حتى مبنى القلعة نفسها.

وقد هدم الأهرامات الصغيرة التى كانت فى الجيزة إلى جانب الأهرامات الثلاثة القائمة الآن، ونقل حجارتها وبنى بها السور والقلعة، ونقر فى الصخر البئر الموجوذ بالقلعة وتسمى بئر يوسف وهى اسم السلطان صلاح الدين يوسف، وقد وصف المؤرخون هذه البئر بأنها من عجائب الأبنية، وهى تدور بالبقر من أعلاها، فتنقل الماء من نقالة فى وسطها، وتدور البقر فى وسطها تنقل الماء من أسفلها، ولها طريق إلى الماء ينزل البقر إليها فى مجار خاصة بها، وجميع ذلك حجر منحوت ليس فيه بناء، وماؤها عذب.

وارتفاع البئر من ابتداء أرض القلعة إلى قاعها خمسون مترًا وثلاثة أعشار المتر:

هذه الأعمال المعمارية الجسيمة التى قام بها قراقوش لفتت إليه أنظار أهل القاهرة، ولابد أنه كان شديد البأس قوى الشكيمة حتى يستطيع القيام بهذه المهمة الجسيمة التى استخدم فيها خمسين ألف أسير من أسرى معارك السلطان صلاح الدين، كما استخدم غيرهم من البنائين وأهل المعمار من المصريين، تطبق عليهم النظام الصارم الذى كان يطبقه على

الأسرى، مما أضجر الناس منه، فلم يجدوا وسيلة للهجوم عليه إلا بتأليف الحكايات الساخرة اللاذعة التى تمس شخصيته.

وقد أصبحت شخصية قراقوش فى الأدب الشعبى تمثل اللا معقول فى كل ما روى عنه أو حوله من حكايات، وهى بذلك تصور صورة نادرة من هذا اللون من الأدب.

ولم تكن شخصية قراقوش الخصى الأسمر، من الشخصيات الجديدة فى الحياة المصرية، فقد سبقه فى الشهرة أبو المسك كافور، الذى كان أيضًا من الفتيان الخصيان السمر، وقد تولى ملك مصر وقصده المتنبى فلم ينل منه شيئًا فهجاه وهرب منه، وحكايته مشهورة.

ولكن كافورًا كان شخصية غريبة، فقد روى أنه كان جالسًا فى مركبة فى يوم عيد، فدخل عليه طائفة من أبناء جنسه، وهم يرقصون ومعهم طبل وطينور، فلما رقصوا بين يديه طرب منهم، وحرك كتفيه، وبدأ يستعد للرقص معهم حتى منعه رجال حاشيته من ذلك.

ومن مشاهير الفتيان الخصيان (صبيح) الذى كان سجانًا للملك لويس التاسع فى دار ابن لقمان فى المنصورة، ومنهم خليل أغا الخادم الخاص للخديو إسماعيل.

ولكن قراقوش كان أوحد زمانه بين هؤلاء الخصيان جميعًا، وقد ظهر أمرهم منذ ظهور الدولة الأخشيدية فى مصر فكانوا يجلبونهم من البلاد الإفريقية وهم أطفال ثم يزيلون ذكورتهم ليصبحوا خدمًا فى دور الحريم عند الأمراء والملوك والسلاطين، وكان الأذكياء منهم يصلون إلى الأمارة مثل كافور وقراقوش، وقد بقى هؤلاء الخصيان السمر فى القاهرة حتى

عهد قريب، وقد شاهدت بقاياهم أمام بيوت بعض الباشوات وكانوا يطلقون عليهم اسم الأغوات.

وكان هؤلاء الخصيان والجوارى سمر الوجوه أيضا ينسبون إلى الحبشة فى العهود الماضية بسبب وجوههم السمراء ولكنهم كانوا يجلبون من بلاد أفريقية متعددة عندما كان النخاسون يتاجرون بهم فى عهد الرقيق.

كما كان بعضهم فيهم قوة ومضاء، وقدرة على السيطرة والتحكم ومنهم صاحبنا قراقوش.

وفى العصر الحديث كان خليل أغا مثل قراقوش فى السيطرة والقدرة على القيام بالأعمال الجليلة، وقد كلفته والدة الخديوى إسماعيل ببناء جامع الرفاعى المقابل لجامع السلطان حسن فى حى القلعة فأشرف على البناء وجعل جامع الرفاعى مماثلاً لجامع السلطان حسن فى ضخامته وفخامته.

وإذا كان كافور الأخشيدى قد تعرض للسخرية اللاذعة من أبى الطيب المتنبى حتى وصلت سخرية الشاعر إلى مصر التى جعلت كافور حاكمًا عليها فقال أبو الطيب:

وكم ذا بمصر من المضحكات

ولكنه ضحك كالبكا

فإن سخرية المصريين بقراقوش فاقت كل الحدود حتى أصبحت فصلاً من فصول الأدب الشعبى يصور أدب اللا معقول كما ذكرت لك.

ولم تكن هذه السخرية اللاذعة ضحكا كالبكاء كما قال المتنبى، أو كما علق عليها حافظ إبراهيم شاعر النيل حين قال فى حرارة عابرة:

وما أنت يا مصر بدار الأديب
وما أنت بالبلد الطيب
وكم ذا بمصر من المضحكات
كما قال فيها أبو الطيب

ولكنها كانت سخرية من لون آخر بلغت النظر، فلم يوجه الأديب الشعبى نقده اللاذع إلى مصر، ولم يقل كما قال المتنبى:

يا أمة ضحكت من جهلها الأمم

ولم يسلك طريق شاعر النيل الذى قال:

وما أنت يا مصر بدار الأديب

أو طريق يوسف السباعى حين استعار هذا المعنى فى إحدى رواياته وهى رواية (يا أمة ضحكت).

ولكن الأديب الشعبى اتخذ من شخصية قراقوش وتصرفاته موضع السخرية فى هذا الشكل الأدبى الرائع وهو: اللامعقول.

إن تصرفات الناس فى كل حكايات قراقوش تصرفات عادية ومقبولة، ولكن تصرفات قراقوش نفسه غير عادية ولا معقولة.

والتعبير الشعبى فى هذه الحالة تعبير جماعى وليس تعبيرًا فرديًّا مثل تعبير المتنبى أو حافظ إبراهيم أو يوسف السباعى، والتعبير الفردى ينم عن الغضب والمرارة والألم الدفين، ولكن التعبير الشعبى ينم عن السخرية الضاحكة بل الهازلة أيضًا، والأديب الشعبى يضحك على قراقوش، ولا يضحك على نفسه، ولا يوجه لومه اللاذع إلى الأمة بل يوجهه إلى الفرد المقصود بالاستهزاء.

ولذلك أصبحت حكايات قراقوش تعبيرًا عن رأى شعبى جماعى فى موقف من المواقف التى تعرض فيها الناس للقسوة البالغة حين قام قراقوش ببناء سور القاهرة، وقلعة الجبل، واستخدم خمسين ألف أسير فى هذا العمل المعمارى الضخم، ونقل أحجار الأهرامات الصغيرة من الجيزة إلى الشاطئ الشرقى للنيل، وحفر بئرًا فى قلب الصخر عن عمق خمسين مترًا، داخل القلعة، حتى وصل إلى الماء العذب المندفع من جوف نهر النيل.

ولك أن تتصور هذا الطواشى الأسمر الحبشى بهاء الدين قراقوش، وهو يقود خمسين ألف أسير، ومعهم عدة آلاف أخرى من العمال المصريين، وفى يده سوط يحركه فى الهواء لإقامة هذا العمل الضخم.

لم يذكر لنا التاريخ شيئًا عما حدث أثناء بناء القلعة وسور القاهرة. وماذا جرى للعمال، وكيف كانوا يعيشون؟ وكيف كانوا يموتون؟

ولم يكن رد الفعل فى هذا الموقف التاريخى هو الشكوى والأنين والبكاء والعويل كما حدث فى مواقف أخرى مشابهة فى حياة مصر، مثل شق قناة السويس، التى دفن تحت رمالها مائة وعشرون ألفًا من العمال المصريين، ولكن رد الفعل كان هذه الحكايات القراقوشية الساخرة الضاحكة اللامعقولة.

ويبدو لى أن انتصارات السلطان الناصر صلاح الدين على الصليبيين قد امتصت غضب المصريين، فلم يرتفع صوتهم بالشكوى والأنين من أفعال قراقوش، ولكنهم عبروا عن مشاعرهم بهذا اللون من الأدب اللامعقول، الذى أرضى عواطفهم، وهو أدب يستحق الدراسة والتأمل فى نصوصه القليلة الباقية.

٣ - أصحاب القافية:

القافية فن من فنـون القول فى الأدب الشعبى المصـرى، وهو فن حوارى يدور بين شخصين: يقول أولهما جملة فيـرد عليه الثـانى بكلمة (اشمعنى) فيجيبه، الأول بكلمة لاذاعة.

ويتبادل المتحاوران المراكز فيصبح الأول هو الثانى. كما يصبح الثانى هو الأول، ويستمر هذا الحوار اللاذع الذى يطلق عليه، أولاد البلد اسم: الدخول فى قافية. فيقول الواحد منهما للآخر:

- تدخل معى قافية؟

ويقوم زبائن القهوة بدور المشجعين، كما يحدث فى مباريات الديوك الهندية، ولكن بلا رهان على أحد المتباريين اللذين يتبادلان المواقع كما قلت لك.

وقد ظهر هذا الفن القولى فى الصحافة الفكاهية التى كانت منتشرة فى الجيل الماضى، واشتهر باب (اشمعنى) فى كثير من هذه المجلات الفكاهيا وكان من أشهر نجومه الكاتب الزجال الشهير حسين شفيق المصرى

وأنت تجد كتابات كثيرة من هذا الفن فى مجلة البعكوكة ومجلة الفكاهة وغيرهما من المجلات التى كانت رائجة، ومشهورة ثم اندثرت.

وفن القافية من فنون القهاوى فى الأصل، وقد انتقل بعد ذلك إلى الصحافة، مثل كثير من الفنون الشعبية القولية التى انتقلت من مسرح الحياة إلى الورق ثم إلى ميكروفون الإذاعة بعد ذلك فى البرامج الإذاعية الفكاهية التى ما زالت تذاع أصداؤها بعـد أن جف معينها الـذى كان

مصدره فى الواقع هو القهاوى البلدية.

ولم يكن أصحاب هذا الفن القولى من المحترفين، بل كانوا من الهواة، وهم قوم ظرفاء من أبناء البلد يقولون كلمات لاذعة تخدش، ولكنها لا تجرح ولا تدمى.

ومن ذلك قولهم فى قافية الترام.

الأول : يعلقوك فى السنجة.

الثانى : اشمعنى.

الأول : ترن.. وتقول تن تن.

وتعتمد القافية على النكتة فى معظم الأحيان حتى تشيع البهجة والسرور فى السامعين، وتدعوهم إلى التصفيق والاستحسان حتى لو كانت نكتة جارحة.

ومن الواضح أن هذا الفن القولى يستمد براعته من واقع الحياة، لأن أصحابه كانوا يستخدمونه للتعبير عما فى نفوسهم وما يلاقونه من متاعب، تخرج من أفواههم فى أقوال ظريفة يشيع فيها جو الفكاهة والضحك والسخرية.

٤ - الأدباتية :

كان عبد الله النديم أشهر أدباتى ظهر فى تاريخ مصر الحديث، ولكنه لم يكن من أدباتية القهاوى، ولا من أدباتية القاهرة، فقد اشتهر فى طنطا فى مجلس المنشاوى باشا كبير أعيان هذه المدينة، وقد اشتهرت أقوال النديم فى مجلس المنشاوى باشا حتى إنها نشرت فى بعض المجلات على

أنها نصوص تدعو إلى الإصلاح والنهضة والتقدم.

لقد كان المنشاوى باشا صديقًا لأحمد عرابى، وقد سمعت من بعض أقارب عرابى باشا أنه أرسل لصديقه المنشاوى باشا ألف شجرة من أشجار المانجو من جزيرة سيلان عندما كان منفيا هناك، وأن المنشاوى زرعها فى مزارعه على مقربة من طنطا، فكان ذلك أول العهد فى مصر بمعرفة فاكهة المانجو.

كان فن الأدباتية من أقرب الفنون القولية إلى نفوس الشعب، لأنه كان يستخدم للتعبير عن آلامه وآماله، واستعراض مشاكله، وقد استغله عبد الله النديم لهذا السبب حتى اشتهرت مقطوعاته، التى كان يلقيها فى مجلس المنشاوى فى طنطا، ولكن هذا الفن كان من فنون التجمعات الجماهيرية، وخاصة فى الموالد والقهاوى.

وكانت فرقة الأدباتية تتكون من عدد من الأفراد يتزعمهم الأدباتى الذى يتولى إلقاء مقطوعته على أنغام طبلة صغيرة مبتدئا بالعبارة الشهيرة:

- أنا الأديب الأدباتى.

ويردد أفراد الفرقة بعض عباراته، طبعًا بنظام تمثيلى متفق عليه، بطريقة كلامية جماعية لافتة، ومن أشهر عباراتهم قولهم:

- شرم برم حالى غلبان.

وكانت فرق الأدباتية تطوف القاهرة، وتقف على أبواب القهاوى البلدية، أو تدخل هذه القهاوى إذا كان مكانها يسمح بذلك. وتقوم بالأداء التمثيلى وإلقاء المقطوعات التى يرتجلها الأدباتى، وقد كانت تعالج

المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى يتعرض لها المجتمع فى تلك الأيام، بمعنى أن فن الأدباتية كان يقوم بالدور الذى تقوم به الصحافة فى معالجة المشاكل اليومية.

وكان هذا الفن الشعبى يعبر عن القهر الذى يتعرض له الإنسان المصرى، لأن الأدباتى كان دائم الشكوى من زوجته التى كان الحديث عنها تعبيرًا رمزيا عن السلطة مثل قوله:

- أنا الأديب الأدباتى

غلبت يا خلق مع مراتى

شرم برم حالى غلبان

وبعد ذلك يعرض الأدباتى قضيته التى هى قضية الشعب، ويكـون العرض غالبًا فى إطار هذا الجو الفنى الذى يرفع صوته بالشكوى من الظلم والقهر، وتتخذ الزوجة رمزًا للقوة القاهرة التى يشكو منها الأدباتى، وكان رواد القهاوى يفهمون الموضوع ويصبحون فى نشوة:

- تمام.. والحدق يفهم.

وهذا الشكل من الرمزية يستحق الدراسة والتأمل. لأن الأدباتى كان يستطيع التعبير عن رأى الشعب بطريقة غامضة ومفهومة فى نفسه حتى لا يعرض نفسه للمسئولية أمام السلطات المستبدة.

وهناك تشابه بين هذا الفن وبين فن النكتـة وفن الكاركتـير الذى اختفى خلف الرمزية أيضًا للتعبير عن رأى الشعب.

لقد اختفى فن الأدباتية من حياتنا باختفاء هذه الطائفة من أصحاب هذا الفن القولى، ثم اختفاء الصحافة الفكاهية أيضًا، التى كانت تنشر

فصولاً ممتعة تحت عنوان: (الأدباتى)، وكان يكتبها أعلام كتاب الفكاهة فى مصر من أمثال حسين شفيق المصرى، ومحمود بيرم التونسى.

٥ - السير الشعبية:

لم يبق فى القاهرة قهوة واحدة من قهاوى السير الشعبية التى تحدث عنها علماء الحملة الفرنسية فى كتاب (وصف مصر) كما تحدث عنها بعد ذلك الدكتور كلوت بك فى كتابه الشهير (لمحة عامة إلى مصر) فى عصر محمد على وما بعده.

وقد شاهدت بعض هذه القهاوى فى فترات حياتى وشبابى مما ذكرته لك من قبل، وبقيت بعض هذه القهاوى حتى بدايات الخمسينات من هذا القرن فيما أعلم، ثم اندثرت، وانتقل هذا الفن الشعبى إلى الإذاعة التى قدمت بعض هذه الملاحم.

ومما يلفت النظر أن دراسة هذا الفن دراسة أكاديمية فى كلية الآداب بجامعة القاهرة، قد بدأ مع بداية اندثاره من قهاوى القاهرة.

كانت أشهر سيرة تقدمها القهاوى هى السيرة الهلالية، وقد شاهدت فى طفولتى وصباى شاعر الربابة فى قهوة بلدية بحى عابدين، وكان هذا الشاعر يسهر كل ليلة فى هذه القهوة، كما كان هناك شاعر آخر فى قهوة بحى معروف على مقربة من شارع سليمان باشا (طلعت حرب الآن)، وكان هذا الشاعر يروى قصة أبى زيد باللغة العربية التى تتخللها بعض المقاطع باللغة اليونانية لأن كثيرين من زبائنه كانوا من اليونانيين، وقد اشتهر حى معروف فى الجيل الماضى بأنه يضم كثيرين من الحرفيين

الأجانب ومنهم إيطاليون، وألمان، ولكن غالبيتهم كانت من أهل اليونان الذين كان يطلق عليهم أولاد البلد اسم الأروام.

كان بعض أهل هذا الحى يتكلمون لغات هؤلاء الأجانب بسبب طول المعاشرة، كما كان هؤلاء الأجانب يتكلمون أيضًا العربية الدارجة، ولذلك استطاع شاعر الربابة أن يحكى بعض مقاطع السيرة الهلالية باللغة اليونانية إرضاء لزبائن القهوة من الأروام اليونانيين.

وقد لفت نظرى هذا الشاعر عندما سمعته ينشد السيرة الهلالية على أنغام الربابة فى قهوته، واستطعت الاتفاق معه ومع صاحب القهوة على تقديم مشهد من مشاهد هذه السيرة فى مدرج كلية الآداب بجامعة القاهرة، فى برنامج الحفل الذى اعتدنا إقامته كل عام قبل التخرج، وكان ذلك فى صيف سنة ١٩٤٢، وكان السبب الوحيد الذى دفعنى إلى هذا العمل هو أن هذا الشاعر كان يحكى بعض مقاطع السيرة الهلالية باللغة اليونانية، لا رغبة فى تقديم هذا الأدب الشعبى فى الجامعة فلم يكن هذا الأمر يطوف بخيالى.

وتم نقل دكة الشاعر وكراسى القهوة، ومناضدها إلى المدرج الكبير فى كلية الآداب حيث أقيم الحفل، وأعد هذا المنظر فوق المنصة، وتجسد ديكور القهوة البلدية جميلاً رائعًا، وجلس بعض الزملاء مرتدين ملابس أولاد البلد على كراسى القهوة البلدية وكان غلام القهوة يقدم إليهم كنكة القهوة فعلا فوق الصينية النحاسية المستديرة اللامعة ومعها فناجين البيشة، ثم دخل الشاعر ومعه الربابة وبدأ يقدم سيرة بنى هلال.

وكان من مشاهدى هذه الحفلة الشائعة أعلام الأدب والفكر فى مصر

من أساتذة كلية الآداب، وعلى رأسهم الدكتور طه حسين، والشيخ مصطفى عبدالرازق، والشيخ أمين الخولى، والدكتور عبدالوهاب عزام، وغيرهم ممن أنسانى الزمان أسماءهم اللامعة، كما حضر الحفل جمع حاشد من طلبة الكلية.

وفى هذه الأيام سمعت أن قهوة فى شارع المحجر بالقلعة تقدم سيرة عنترة، وذهبت إلى هناك لسماعها، ولكننى لم أسمع أو أعرف أن هناك قهاوى تقدم سيرة الظاهر بيبرس أو الأميرة ذات الهمة أو غيرها، ويبدو لى أن هذه القهاوى كانت قد بدأت فى الانقراض، وأن الشعراء الذين كانوا ينشدون هذه الملاحم قد انقرضوا أيضًا.

ولكن الذى حدث كان أمرًا عجبًا، فقد فكرنا صديقنا وزميلنا الراحل الدكتور عبد الحميد يونس، فى إعداد رسالة ماجستير عن سيرة الظاهر بيبرس، وكان أحد زملائنا من خريجى قسم التاريخ وهو الدكتور جمال الدين الشيال، يعد رسالة ماجستير عن تاريخ الظاهر بيبرس.

كانت رسالة عبد الحميد يونس عن سيرة الظاهر بيبرس، هى البداية الرسمية لدراسة الأدب الشعبى، وقد اتبعها برسالة الدكتوراه عن السيرة الهلالية.

ولكن هذه السير الشعبية اختفت من قهاوى القاهرة، وظهرت في دراسات الجامعة وفى مراكز البحوث الخاصة بالأدب الشعبى.

قهوة البوسطة

لم تشتهر قهوة فى تاريخ الفكر المصرى الحديث مثل شهرة قهوة البوسطة بميدان العتبة الخضراء بالقاهرة، وترجع شهرتها إلى الشيخ الأكبر جمال الدين الأفغانى، الذى اتخذها مكانًا للقاء مع تلاميذه ومريديه.

وكان سبب تسمية هذه القهوة بهذا الاسم هو أنها كانت بالقرب من مبنى مصلحة البريد، التى كان يطلق عليها (البوسطة)، وهو التعبير العامى عن كلمة (بوست) اللاتينية فى اللغات الإنجليزية والفرنسية والإيطالية، وهى كلمة شائعة فى اللهجة المصرية.

ومن الواضح أن الأفغانى اتخذ من هذه القهوة مكانًا للاجتماعات حتى تكون كل الآراء التى تقال، والمناقشات التى تجرى علنية يستطيع كل عابر سبيل سماعها.

وقد ارتبطت قهوة البوسطة بتاريخ حياة جمال الدين الأفغانى وهو فصل من فصول الفكر السياسى فى حياة مصر الحديثة.

كان الأفغانى يجلس فى صدر المقهى، وتتألف حوله نصف دائرة من مريديه، الذين يتسابقون إلى إلقاء، أدق المسائل عليه فيرد عليهم بلسان

عربى مبين، ويتدفق كالسيل من قريحة لا تعرف الكلال، فيدهش السامعين.

وكان يمضى الليل فى القهوة حتى يبزغ النهار كما يقول مؤرخوه فيعود إلى داره بعد أن يدفع لصاحب المقهى كل حساب جلسائه الذين أصبحوا فيما بعد من أعلام النهضة الحديثة مثل محمد عبده، وسعد زغلول، ومحمود سامى البارودى، وإبراهيم الهلباوى، وإبراهيم المويلحى، وأديب إسحق، ويعقوب صنوع، وعبد الله النديم.

وهذه الأسماء تدلك على قيمة هذه الندوة التى كانت تعقد فى قهوة البوسطة، التى تغير اسمها بعد ذلك وأصبحت تعرف باسم قهوة متاتيا، وقد قال فيها بيرم التونسى فى زجل من أزجاله الشهيرة ووصفها فى قوله:

وقهوة متاتيا أم برنج كبير

وقد ظلت هذه القهوة مقترنة باسم جمال الدين الأفغانى ولولاه ما ذكر اسمها أحد من الناس.

حدث ذات مساء أن وجد الأفغانى نفسه وحيدًا فى مقهاه فأخذ عصاه فى يده وذهب إلى حديقة الأزبكية المجاورة للمقهى، وقد كان الشيخ من عشاق الحدائق والأشجار والأزهار فأحب أن يتنزه فى حديقة الأزبكية، وهناك وجد مشربًا قد صف كراسيه ومناضده فى الحديقة فجلس، وجاءت إليه صاحبة المشرب، وكانت سيدة بارعة الجمال فجلست معه، وسرها أن يكون من زبائنها هذا الشيخ الوقور فى ثيابه وعمامته، وطلبت له كوبًا من البيرة ما لبث أن سكبها على الأرض، ثم امسك بيد الحسناء، وقال لها:

– حرام أن تحترق هذه اليد الجميلة فى نار جهنم. وبدأ يعدد محاسنها وفتنتها، ويتأسف لأنها ستحترق فى نار جهنم.

ما لبثت الحسناء أن أجهشت بالبكاء وتابت إلى من يقبل توبة التائبين، وأغلقت المشرب وتابت إلى الله.

وشاهد بعض الناس الشيخ الأكبر جالسًا فى هذا المشرب فأبلغوا الشيخ محمد عليش العالم الأزهرى الشهير المناوئ للأفغانى وجماعته، فبدأ الشيخ عليش مهمته ضد الأفغانى الذى يجلس فى مشارب الأزبكية واتهمه بالفسق والفجور وعظائم الأمور.

كانت الأزبكية فى الأيام من الأماكن التى لا يبيح الشرفاء لأنفسهم الاقتراب منها، فكيف بالشيخ الأكبر جمال الدين الأفغانى ؟.

هذه إحدى المفتريات التى وجهت إلى الشيخ الذى هدى امرأة عاصية إلى طريق الحق فكان نصيبه من الشيخ عليش الاتهام بالفسق والفجور.

وهناك فرية أخرى ساقها (سليم عتمورى) أحد كتاب الشوام الذى زعم أن الشيخ كان يشرب الكونياك فى قهوة البوسطة، وقد غضب لذلك الشيخ محمد رشيد رضا تلميذ الإمام محمد عبده، وصب جام غضبه على العتمورى، وكان يكفى أن يقول له إن هذا الزعم غير معقول، ولا يمكن أن يتصوره عقل، لأن الشيخ الأكبر كان يجلس فى القهوة وحوله أعلام الأعلام من رجال العصر، وهو الأستاذ الذى يعلمهم.. فكيف يشرب الكونياك أمام أعينهم، وهل كانوا فى مجلس شراب أم فى مجلس علم وفكر وسياسة ؟.

إن أعداء الأفغانى لا أول لهم ولا آخر، وهذا أمر طبيعى فإن مثله من الأشخاص القادرين على تغيير مجرى الحياة لابد أن توجه إليهم السهام. ورحم الله المتنبى حتى قال:

ومن عرف الأيام معرفتى بها
وبالناس روّى رمحه غير راحم
إذا صلت لم أترك مصالاً لصائل
وإن قلت لم أترك مقالاً لعالم

وبعد خروج الأفغانى من قهوة البوسطة فى جنح الظلام وفى الليلة الليلاء قبض عليه هو وخادمه أبو تراب، واقتادتهما الشرطة تحت الحراسة إلى السويس حيث ركب سفينة خرجت به من مصر إلى الهند منفيًا فى عهد الخديوى توفيق.

ولكن الشعلة ظلت متوهجة فى رفاقه من أبناء ندوة قهوة البوسطة الذين ألهبوا شرارة الثورة العرابية.

هذه قصة ثورة لا قصة قهوة.

قهاوى الأدباء وأهل الفن

كانت قهوة بار اللواء أشهر قهوة فى القاهرة فى الجيل الماضى، وكان اسم جريدة اللواء التى أنشأها الزعيم مصطفى كامل قد انتشر فى أرجاء المدينة وأطلق على مدارس وصيدليات ومحلات تجارية وغيرها.

وقد تصدرت صورة مصطفى كامل هذه القهوة الكبيرة التى كانت تقع فى مبنى أمام بناية جريدة الأهرام القديمة بشارع مظلوم فى قلب القاهرة.

ذكر الدكاترة زكى مبارك أنه عندما سافر إلى العراق لم يجد فى بغداد قهوة مثل بار اللواء التى كانت منتدى لأهل الفكر والأدب والصحافة وأن أنطون الجميل باشا رئيس تحرير الأهرام كان يترك مكتبه فى الجريدة ليتخذ من إحدى مناضد القهوة مكتباً له، حتى يجمع من حوله الأدباء والشعراء.

وقهوة بار اللواء لها قصص وحكايات تشبه الأساطير.

قيل - والقهوة على الراوى، إنه كانت هناك صلات ومعاملات بين القهوة وبين محطة باب اللوق، وسكة حديد حلوان، التى كان يملكها

المليونير الشهير فيلكس سوارس، ولم تكن خاضعة لإدارة سكك حديد الحكومة المصرية.

كان الذوات الأكابر من سكان حلوان فى ذلك الزمان يسهرون فى قهوة بار اللواء كما يحلو لهم السهر، وعند عودتهم إلى حلوان كانوا يرسلون عامل المقهى إلى محطة باب اللوق لإعداد قطار خاص لهم ينقلهم من باب اللوق إلى حلوان، وكانت أجرة القطار المخصص حينذاك خمسة جنيهات ذهبية.

وقيل إنهم كانوا يكملون السهرة فى عربة القطار فتنشد الأشعار وتروى الحكايات، والنوادر، حتى يصل القطار بعون الله إلى محطة حلوان عند مطلع الفجر.

ومن نوادر بار اللواء أن كبير الجرسونات فى القهوة، كان اسمه (ينى أباظة)، وسبب ذلك أن العائلة الأباظية، كان لها ركن ركين فى القهوة، وكان من أشهرهم فؤاد باشا أباظة، الذى كان رئيسًا للجمعية الزراعية. وكان منهم أيضًا الأستاذ فكرى أباظة المحامى، والصحفى الشهير صاحب الأسلوب الساخر، والضاحك الباكى فى وقت واحد، وهو من أصحاب المقالات والأحاديث الإذاعية النادرة فى العصر الحديث.

أما الوزير الخطير إبراهيم الدسوقى أباظة باشا، فقد نصب نفسه داعيًا للأدباء والشعراء، ممن أدركتهم حرفة الأدب وأضر بهم الزمان وكان أشهرهم من الجالسين حول مناضده الحافلة بأطايب الطعام والشراب: طاهر أبو فاشا، ومصطفى حمام، وعبد الحميد الديب والعوضى الوكيل وعبد المجيد الغزالى وغيرهم ممن يطلقون على أنفسهم أدباء العروبة.

وقد ابتكر الدسوقى أباظة باشا طعامًا كان يقدمه لهؤلاء الأدباء فى داره سماه العدس الأباظى، وهو العدس المعروف عند كافة الناس، ولكنه مطبوخ بالحمام الذى كان يزيده لذة وإمتاعًا.

والدسوقى أباظة باشا هو والد الأديب القصصى ثروت أباظة.

وكان من رواد بار اللواء ساعة الظهيرة، الدكتور محمد حسين هيكل باشا. ولكنه كان يجلس إلى منضدته وحيدًا سارحًا فى أفكاره إلا أن يقترب منه أحد تلاميذه من المريدين الكثيرين الذين كانوا يجدون فيه الأب الروحى لهم، وكنت واحدًا منهم منذ شب طوقى فى الدراسة الثانوية، عندما كنت طالبًا فى المدرسة الإبراهيمية الثانوية، التى كانت تتخذ مقرًا لها فى سراى مظلوم باشا، فى مواجهة مبنى جريدة الأهرام القديم.

وقد كان المحررون فى جريدة الأهرام يتخذون من مناضد مقهى بار اللواء مكاتب لهم، وكان أشهرهم الأستاذ عبد الحليم الغمراوى مندوب الأهرام فى رياسة مجلس الوزراء وأشهر مندوب صحفى فى مصر فى ذلك الوقت، وكان يرتدي بدلة سوداء فى الصيف والشتاء حدادًا على مصر التى يحتلها الإنجليز، وقد أقسم ألا يخلعها إلا بعد جلاء الإنجليز، وقد كان تجسيدًا حيًا لمبادئ الزعيم مصطفى كامل صاحب جريدة اللواء، الذى لخص فلسفته السياسية فى كلمته المشهورة:

– لا مفاوضة إلا بعد الجلاء

وقد ظل عبد الحليم الغمراوى، يرتدى بدلته السوداء، حتى تم توقيع اتفاقية الجلاء مع بريطانيا بعد ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ فخلع السواد.

أما الأستاذ صالح البهنساوى، دينامو جريدة الأهرام فقد كان رجلاً قصير القامة: ضاحك السن، لماع العينين، وكان يمضى ليله بين منضدته فى بار اللواء، ومكاتب جريدة الأهرام، والمطبعة التى كانت فى بدروم مبنى الجريدة، وكان رحمه الله يتحرك بين هذه الأماكن فى سرعة خاطفة حتى تصبح الجريدة صالحة للظهور بعد منتصف الليل، تهدأ حركته ويجلس إلى منضدته... ثم ينصرف.

وعندما تملأ منضدة صالح البهنساوى من صاحبها يعرف رواد المقهى أن الأهرام أصبحت ماثلة للصدور.

وكان صالح البهنساوى، يصدر مجلة أسبوعية اسمها (شيخ الصحافة) خصصها لسباق الخيل الذى كان يجرى فى نادى الجزيرة بالقاهرة كل يوم أحد، وكان له رواد وقصاد يتراهنون على الخيول فى السباق.

وكانت (شيخ الصحافة) تطبع ألف نسخة لهواة هذا السباق المشتركين فيها، ومن عجائبها أنه كان لا يرسلها إليهم فى البريد، حتى لا تتأخر فى الوصول إلى أيديهم، وكان أجر إرسالها فى البريد يتكلف فى تلك الأيام مليمًا واحدًا لكل نسخة، أى أن الألف نسخة تتكلف جنيهًا واحدًا كل أسبوع.

ولكن الأستاذ البهنساوى اتفق مع رجل كان يعمل فى مجلة الصباح على القيام بهذه المهمة البريدية على أن يدفع له أجر الإرسال بالبريد وهو جنيه واحد كل أسبوع.

والعجيب فى هذا الأمر أن الرجل كان يقوم بهذا العمل وينتقل من حلوان، إلى المعادى، إلى مصر الجديدة، إلى الزمالك وجاردن سيتى،

وتوصل كل نسخة من المجلة إلى صاحبها، وظل يقوم بهذا العمل سنوات طويلة لا يكل ولا يمل، بل كان أقدر من مصلحة البريد فى توصيل البريد، ومن عجائبه أنه كان يركب فى نعل حذائه قطعة من المطاط، ويقول: إنه ركب فى حذائه نصل طائرة.. وهو الكاوتشوك المستخدم فى إطارات الطائرات. ومن عجائبه وغرائبه أيضًا، أنه كان يتغذى بالبلح الجاف والفول السودانى، ويحشو بهما جيوبه خلال رحلاته الخاطفة فى أنحاء القاهرة.

كان هذا الرجل من زبائن بار اللواء بالضرورة عند استلام نسخ مجلة (شبح الصحافة) أو العودة لاستلام الجنيه من الأستاذ صالح البهنساوى بعد توزيعها، وكان لابد له من طعام وشراب فى الحالتين.

ومن أشهر شخصيات بار اللواء، الدكتور محمود عزمى الصحفى الشهير، والقانونى الأشهر، الذى تولى منصب عمادة كلية الحقوق، وأنشأ قسم الصحافة فى كلية الآداب، وكنا فى شبابنا نستمتع برؤيته وهو يضع القبعة على رأسه ويجلس مع زوجته الروسية البيضاء. أى أنها كانت غير شيوعية، وكانت تنتمى إلى روسيا البيضاء، قبل أن تكون حمراء، وكان جلوس النساء فى القهاوى أمرًا غير مألوف فى الجيل الماضى إلا فى قهوة الفن بشارع عماد الدين، حيث تجلس الممثلات والراقصات مع الرجال ولا حرج فى ذلك.

كان الدكتور محمود عزمى من ألمع شخصيات المجتمع وقد تولى رياسة تحرير جريدة روز اليوسف اليومية، التى كان مقرها خلف سراى مظلوم باشا التى حدثتك عنها بالقرب من بار اللواء، وقد توقفت هذه الجريدة

عن الصدور وأفلست لأن المعلم حسن الفهلوى، موزع الصحف الشهير حينذاك كان يستلم النسخ المطبوعة من الجريدة، ويلقيها كما هى مربوطة فى ركن قهوته، التى كان يتخذها مقرًا لنشاطه فى حى الفوالة بعابدين، وهو الحى الواقع خلف بنك مصر، وقد هدم بعد أن كان من أكثر أحياء عابدين نشاطًا وازدحامًا بالسكان.

أما السبب فى قتل جريدة روز اليوسف اليومية فهو أنها كانت ضد حزب الوفد، بينما كان المعلم حسن الفهلوى وفديًا، فأقسم برأس المرحوم والده أن يقتلها وهى فى المهد، وقد فعل، بينما الباحثون فى تاريخ الصحافة المصرية يبحثون عن أسباب سقوط الجريدة، التى كان رئيس تحريرها الدكتور محمود عزمى وكان كاتبها الأول عباس محمود العقاد وكان من محرريها كامل الشناوى أحد زبائن بار اللواء المشهورين.

أما النجمان اللامعان فى قهوة بار اللواء، فهما شاعر النيل حافظ إبراهيم، والشيخ عبد العزيز البشرى جاحظ هذا العصر.

كنت أرى الشيخ عبد العزيز البشرى كل يوم واقفًا عند باب بار اللواء وقد وضع يده على خده، واستند إلى الباب فى انتظار صاحبه حتى إذا ما رآه صاح فى فرح وسرور:

– إنت فين يا حافظ؟

كان هذا المنظر يتكرر كل يوم، وكنت فى صباى أسعد به كثيرًا مع بعض رفاقى من تلاميذ المدرسة الإبراهيمية.

كان عبث صبيان يفرحون بمشاهدة حافظ والبشرى، وكنا نتضاحك ونردد كلمة البشرى تقليدًا لصوته ويقول أحدنا لصاحبه:

- إنت فين يا حافظ؟

ولم نكن ندرى ماذا يحدث بعد أن يغيب النجمان عن أبصارنا داخل القهوة.

وقد روى لى الشاعر محمود أبو الوفا أن حافظ إبراهيم توسط عند الزعيم سعد زغلول، عندما كان رئيسًا للوزراء أن يعينه فى وظيفة بوزارة الأوقاف التى كانت ملاذًا للأدباء، فقد اشتغل فى وظائفها محمد المويلحى الشهير صاحب (حديث عيسى بن هشام)، وعباس محمود العقاد، وكامل كيلانى رائد أدب الأطفال.

كان وزير الأوقاف فى وزارة سعد زغلول هو نجيب الغرابلى باشا الذى كان محاميًا أديبًا شاعرًا وقد طلب منه سعد زغلول تعيين الشاعر صاحب الساق الواحدة محمود أبو الوفا فى وزارة الأوقاف، وأبلغه شاعر النيل بتوصية الزعيم فتوكأ على عكازه وحمل عصاه فى يده وتوجه إلى وزارة الأوقاف، ولكنه لم يقابل الغرابلى باشا.

طار الحلم من رأس الشاعر، ولم يجد أمامه شيئًا يفعله إلا أن يذهب إلى قهوة بار اللواء القريبة من وزارة الأوقاف، ليشرب فنجان قهوة، وهناك التقى بالأستاذ أحمد فؤاد الصاعقة صاحب ورئيس تحرير مجلة (الصاعقة) التى كانت أشهر مجلة هجومية فى ذلك الزمان... كانت مثل الطوربيد عندما كانت مجلات (السيف والمسامير) أو (حمارة منيتى) أو (حمارة متى يأتى) أو مجلة (الصرخة) وغيرها من المجلات لا تزيد عن كونها قنابل.

تحدث أحمد فؤاد الصاعقة، مع الشاعر محمود أبو الوفا، وطيب

خاطره، حتى هدأت نفسه، ثم قال له:

- ما رأيك فى أن تكتب الآن قصيدة فى هجاء نجيب الغرابلى.. وكل بيت شعر بجنيه.. وها هى عشرة جنيهات ثمن عشرة أبيات، وما زاد عن ذلك نتحاسب عليه فيما بعد.

وقدم أحمد فؤاد الصاعقة العشرة جنيهات، التى دسها أبو الوفا فى جيب جلبابه تحت المعطف، وقدم إليه أيضًا الورق والقلم فكتب الشاعر الأبيات العشرة فى هجاء نجيب الغرابلى باشا وزير الأوقاف، وكانت من أقذع الهجاء ابتداء من صناعة الغرابيل التى كان يمارسها أهله فى قريته وانتهاء بوقوفه على أبواب المحاكم للبحث عن زبون منهم فى خفية. حتى وصل إلى كرسى الوزارة.

خطف أحمد فؤاد الورقة من يد محمود أبو الوفا، وكتب منها نسخة بخط يده، ثم تركه وجرى إلى مكتب وزير الأوقاف وقدمها إلى سكرتيره طالبًا الإذن بالنشر فى مجلته (الصاعقة).

أحداث سريعة متلاحقة مثل أفلام السينما.

الوزير يقرأ الهجاء اللاذع فيدق الجرس لسكرتيره حتى يحضر إليه أحمد فؤاد الصاعقة بسرعة.

أحمد فؤاد يدخل مكتب الوزير ويحييه تحية الصباح فى أدب جم.

الوزير يضع يده فى جيبه، ويخرج حافظة نقوده، ويعطى أحمد فؤاد ورقة مالية من ذات المائة جنيه.

ثم تنتهى المشاهد السينمائية فى مبنى وزارة الأوقاف، ونبدأ مشاهد أخرى فى قهوة بار اللواء، حيث ما زال الشاعر محمود أبو الوفا جالسًا

إلى منضدته يكمل شرب فنجان القهوة، وقد دفن أمامه أحمد فؤاد وبيده الورقة المالية ذات المائة جنيه، ليقول له:

- إنت أخذت عشرة وأنا أخذت مائة يـا عبيط.. كل سنـة وأنت طيب.

وانتهت المشاهد التمثيلية، ولم تنشر قصيدة الهجاء التى سمعتها من الشاعر أبو الوفا ذات يوم فى لحظة صفاء.

ومن نوادر أبو الوفا نفسـه، أنه كـان يمتلك نصف قهوة فى شـارع عبد الخالق ثروت، وكان يملك النصف الثانى قهوجى بلدى شاركه فى هذه القهـوة التى كانت السبب فى شهـرة الشاعـر الـذى غنى لـه محمـد عبد الوهاب أعذب أغانيه، وهى أغنية (عندما يأتى المساء).

لقد اتخذ محمود أبو الوفا من هذه القهوة موردًا للرزق حين ضاقت الدنيا فى وجهه، كما جعل منها أيضًا دكانًا من دكاكين الأدب، وكتب فيها قصيدته التى مدح فيها أحمد شوقى فى مناسبة تنصيبه أميرًا لشعراء العرب فى دار الأوبرا سنة ١٩٢٧، وهو يقول فيها:

وخالدُ الشعر سوف يبقى مرايا
تُجتلى فى صفائها الأشياء
يا أمير البيان إن بيانى
فيك أعشت عبرته الأضواء

وكانت هذه القصيدة، إحدى القصائد، التى اختارتها لجنة المهرجان التى كان من أعضائها شاعر النيل حافظ إبراهيم وشاعر القطرين خليل مطران.

ثم حدثت الحادثة عندما قام محمود أبو الوفا من قهوته بشارع عبد الخالق ثروت، مرتديا جلبابه ومعطفه، وعكازه تحت إبطه، وعصاه فى يده، وتوجه إلى دار الأوبرا لإلقاء قصيدته.

لقد رآه أمير الشعراء فى صالة دار الأوبرا فاستنكر أن يقف هذا الرجل ذو الجلباب فوق خشبة مسرح الأوبرا، يوم الاحتفال بتنصيب شوقى أميرًا للشعراء، وأمر بمنعه من الدخول حتى تدخل الموسيقار محمد عبد الوهاب، صديق الشاعر أبو الوفا فى الموضوع فسمح شوقى للشاعر بإلقاء قصيدته فبزغ نجمه، وعلا قدره منذ تلك اللحظة. وقال فيه شوقى قصيدته الرائعة البديعة التى حوت مقطوعة من أجمل الصور الشعرية وهى:

البلبل الغرد الذى هز الربى
وشجى الغصون وحرك الأوراقا
خلف البهاء على القريض وكأسه
تسقى بعذب نسيبه العشاقا
فى القيد ممتنع الخطى وخياله
يروى البلاد وينشر الآفاقا
سباق غايات البيان جرى بلا
ساق فكيف إذا استرد الساقا

وقد حاولت السيدة هدى هانم شعراوى، أن يسترد أبو الوفا ساقه المقطوعة بساق صناعية تصنع له فى باريس، وأقنعت إسماعيل صدقى باشا رئيس الوزراء حينذاك، بأن يعالج الشاعر وتركب له ساق صناعية

على نفقة الدولة المصرية فى فرنسا، وسافر محمود أبو الوفا إلى باريس، وركب الساق الصناعية، وارتدى البدلة الأفرنجية ولكنه لم يلبث أن ألقى بالساق الصناعية بعيدًا، وخلع البدلة وعاد إلى ارتداء الجلباب والمعطف، واستخدام العكاز والعصا.

ومن نوادر النقد الأدبى التى يجب أن يعرفها الناس أن الدكتور طه حسين حمل حملة قاسية على شعر محمود أبو الوفا حتى أنكر شاعريته إنكارًا تامًّا، لأن إسماعيل صدقى باشا هو الذى أرسله إلى فرنسا، وكان إسماعيل صدقى من ألد أعداء طه حسين، وهو الذى فصله من الجامعة، وفصل معه الدكتور عبد الرزاق السنهورى، وكان هذا هو السبب فى هجوم الدكتور طه حسين على المسكين البائس محمود أبو الوفا، الذى طاردته حرفة الأدب وطارده البؤس حتى آخر لحظة من حياته، عندما قرر الرئيس الراحل أنور السادات منحه شقة بها تليفون فى مدينة نصر، ومنحه جائزة أكاديمية الفنون وقدرها ألف جنيه.

لقد أقام فى الشقة أيامًا، ولم يستلم الألف جنيه، وفضل أن يرحل سريعًا من دنيا التراب إلى عالم آخر كله نور وحياء.

وكان أستاذنا الجليل الشيخ مصطفى عبد الرازق أستاذ الفلسفة الإسلامية فى مكتبة الآداب بجامعة القاهرة وشيخ الجامع الأزهر فيما بعد من أشد المعجبين بشعر محمود أبو الوفا، وكان يشبهه بالشاعر المصرى بهاء الدين زهير وقد شبهه به أيضًا أمير الشعراء أحمد شوقى كما رأيت فى وصفه له.

وكان حساد أبو الوفاد كثيرين، ومنهم الدكتور زكى مبارك والشاعر

صالح جودت، وقد سمعت منها نقدًا لاذعًا للشاعر أبو الوفا وكنت أقول لكل منها:

– أنت تتمنى أن تكون قصائد محمود أبو الوفا لك أنت لا له هو.. إنها من أرق الشعر المصرى الذى قيل فى هذا العصر وخاصة شعر فى الحب.

إن غيرة الشعراء أشد عنفًا من غيرة النساء.

ولكننى أتحدث معك عن القهاوى ولا أريد أن أبرح مكانى إلى حديث غيره، حتى لو كان حديث الشعر والشعراء، وهو من أحب الأحاديث.

لقد كانت قهوة الكتبخانة المواجهة لمبنى دار الكتب بشارع محمد على، هى المكتب الرسمى لشاعر النيل، حافظ بك إبراهيم، وكيل دارالكتب ومعه تابعه الذى لا يفارقه الشاعر الأسمر اليائس المظلوم إمام العبد.

كانت سلالم مبنى دار الكتب عالية واقفة صعبة المرتقى، ولعل المهندس الذى صممها أراد أن يجعل الصعود إلى الكتب أصعب من الصعود إلى نجوم السماء، وقد حدثنى الشاعر محمود أبو الوفا، فقال: إنه استقال من العمل فى دار الكتب بسبب صعوبة صعود سلالمها، وهو رجل له ساق واحدة، ولا يستطيع الحركة إلا بالعكاز والعصاة.

ولذلك اتخذ حافظ إبراهيم من قهوة الكتبخانة مقرًا رسميًا له وكان لا يصعد إلى مكتبه فى دار الكتب إلا قليلاً، وكانوا يحضرون له الأوراق الرسمية التى يجب التوقيع عليها فى القهوة ليمهرها بتوقيعه وهو يدخن الشيشة، ويشرب القهوة، وقد جلس معه إمام العبد، الذى اتخذ منه شاعر

النيل مجالاً لنكته الساخرة، وقد طبع إمام العبد أشعاره فى ديوان نحيل حقير ملىء بالأنين وشكوى الزمان، ولا أحد يعلم من أين جاء هذا الشاعر؟ ولا أين ذهب؟ فقد ضاع المسكين بين أمواج التيار المتدفق من حوله.

وقد كانت دار الكتب تضم بين أبنائها كوكبة من الشعراء على رأسهم شاعر النيل، ولم يكن إمام العبد منهم على كل حال، بل كان أشهرهم الشعراء: محمد نسيم، ومحمد الأسمر، ومحمود أبو الوفا، والدكاترة زكى مبارك وغيرهم حتى نسيت أسماءهم أو نسيهم الزمان.

لقد جنى حافظ وشوقى على تاريخ الأدب المصرى فى عصرها، جناية فظيعة، لأنهما كانا النجمين اللامعين فى سماء بها نجوم كثيرة توارى أكثرها خلف الحطام.

كان حافظ يقول متعذرًا: إن الناس يقولون: حافظ وشوقى مثل قولهم فول وطعمية أو سميط وبيض.

كلا تعجب إذا ضاع شاعر مثل إمام العبد وسط الزحام، فقد ضاع غيره كثيرون، ولم يؤلف أحد كتابًا عن الشعراء فى عصر حافظ وشوقى كما ألف صديقنا الراحل، الدكتور محمد مندور كتابه عن الشعراء بعد شوقى.

ولم يكن حافظ يقضى وقتًا طويلاً فى قهوة الكتبخانة، بل كان ينتقل منها إلى قهاوى ميدان العتبة الخضراء، وميدان الأوبرا، والشوارع المحيطة به، حتى يصل إلى قهوة بار اللواء حيث ينتظره صاحبه الشيخ عبد العزيز البشرى، وكان لهما صاحب ثالث نسبه أهل الأدب هو الأديب الموسيقى

الظريف الثرى الأمثل محمد البابلى سيد أصحاب النكتة فى عصره.

كان البابلى صاحب أسلوب أدبى بديع، وكان من أبرع العازفين على العود، وكانت داره فى حلوان ملتقى أهل الأدب والفن والغناء والموسيقى، وقد أقام حافظ والبشرى فى حلوان فترة من الزمان، حتى يكونا بالقرب منه كما سبق أن ذكرت لك.

ولكن الذى يذكره الرواة، ولم يسجله الكتاب هو أن سيدة الغناء أم كلثوم، كانت من شلة حافظ إبراهيم، وعبد العزيز البشرى، وكانت تلميذة لهما، وكانت لها معهما ومع أصدقائهما جولات ونكت وحكايات.

لقد تعلمت أم كلثوم منهما فنون الأدب وفنون النكتة أيضًا.

ومن النوادر التى تروى عنهم، أنهم كانوا مدعوين للغداء فى دار رجل اسمه سكر، كان من مشاهير صناعة الطباعة وتجليد الكتب، وطال بهم المقام فى انتظار الطعام، وقد ضجت دار سكر بالدق فى هاون النحاس، فقال حافظ:

- ما هذه الضجة التى تسمعها.. وما هذا الدق بالهاون؟

فقالت أم كلثوم:

- أصلهم بيكسروا راس سكر.

وكان السكر فى ذلك الزمان يصنع على هيئة أقماع يطلق عليها الناس اسم راس السكر.

لقد تبعثرت أشعار كثيرة، ونوادر ونكت كثيرة أيضًا على ألسنة الرواة ولم يسجلها أحد فى كتاب، وقد توجد متناثرة فى صحف ومجلات تلك الأيام.

ما علينا.

كانت توجد فى شارع محمد على على أبواب حى الحلمية الجديدة قهوة كنا نطلق عليها اسم القهوة العالية، لأنها كانت ذات سلالم تصعد إلى ساحتها الواسعة، ذات النوافذ التى تطل على شارع الحلمية وشارع السيوفية، وكان يقوم بالخدمة فيها رجل واحد هو صاحبها وهو الجرسون الوحيد فيها، واسمه رمضان.

كان رمضان رجلاً هادئًا طيبًا مع من جاء إلى القهوة أو ذهب ويحمل رسائلك الشفهية إلى أصحابك، ويحمل رسائلهم إليه.

كانت قهوة لا يجلس فيها إلا جماعة من المثقفين من طلاب الجامعة أو الأفندية الموظفين وأمثالهم، ولذلك كانت تمتاز بالهدوء فلا صخب، ولا ضوضاء، مثل قهاوى العتبة الخضراء أو ميدان الأوبرا.

وكان روادها من أبناء حى الحلمية والمغربلين والقلعة وعابدين، وقد أصبحوا متعارفين عن طريق رمضان، الذى كان يعرفهم واحدًا واحدًا، و يربط بينهم أواصر الصداقة بطريقته التى كانت تطرد الغرباء من القهوة بالذوق، لا بالجهامة وقلة الأدب، وهى طريقة يتقنها أبناء البلد.

وكنا نعجب فى شبابنا من أفعال رمضان، وكيف يتصرف مع الزبون الغريب، فلا يعود إلى الجلوس فى القهوة مرة أخرى هذا سر من أسرار مهنة القهوجية العتاة فى ذلك الزمان كان رمضان ظريفًا لطيفًا دائم الابتسام لا يغضب ولا يحب الشكل، أى العرك بالكلام أو باليد، بل يتصرف بحكمة وذوق، ويلبى طلبات الزبائن فى صبر وحسن استقبال حتى يكاد أن يخجلك لو أسرفت فى طلباتك.

وكنت أعجب من إصراره على أن يقوم وحده بكل أعمال القهوة فسألته ذات مرة:

لماذا لا تتخذ لك صبيا يساعدك؟

فابتسم، وقال:

- يساعدنى أو يسرقنى

ثم سكت.

فى هذا الجو كان نجمان كبيران يضيئان فى هذه القهوة العالية، كانا هما سبب وجودها وبقائها فترة طويلة من الزمان. الشاعر محمد الهراوى، والشاعر الشيخ محمد الأسمر.

كانت لهما منضدة دائمة عند النافذة المطلة على شارع الحلمية، وكان من عادة محمد الهراوى أن يدخن الشيشة مع شرب القهوة، ولكن الشيخ محمد الأسمر كان لا يدخن الشيشة ولا السجاير.

وكان من عادتهما أن يجلسا وحدهما يتحدثان معًا، ولا أحد يعلم بماذا يتهامسان؟ وقد ينقطع الهمس ليدور حديث بين أحدهما أو كليهما مع أحد الزبائن المعروفين من رواد المقهى، وكان أشهرهم، الأستاذ محمد الخشاب، وهو والد الدكتور يحيى الخشاب الأستاذ الشهير فى اللغات التركية والفارسية، وزوج الدكتورة سهير القلماوى.

وقد كان الأستاذ محمد الخشاب، يحلو له أن يلعب الطاولة أحيانا فيدعو إليه أحد الزبائن ليلعب معه دورًا أو دورين، ثم يضحك و يقول:

– لعل الشيخ محمد الأسمر يقول لنا قصيدة فى الغالب والمغلوب فى هذا اللعب.

والشيخ محمد الأسمر من الشعراء المعدودين فى الجيل الماضى، وله ديوان مطبوع فى أكثر من ستمائة صفحة، كان يباع بسبعين قرشًا وسبحان مغير الأحوال.

وقد كتب الشيخ الأسمر قصيدة فى سنة ١٩٤٥ بمناسبة توقيع ميثاق الجامعة العربية، غنتها أم كلثوم من ألحان زكريا أحمد فى قصر عابدين فى حفلة كبرى، حضرها ملوك ورؤساء العرب، وهو يقول فيها:

زهرُ الربيع يُرى أم سادة نُجُبُ
وروضة أينعت أم حفلةٌ عجب
تجمع الشرق فيها فهو مؤتلقٌ
كالعقد يلمع فيه الدر والذهب

وختم هذه القصيدة ببيت حافظ إبراهيم الشهير الذى قال فيه:

هذى يدى عن بنى مصر تصافحكم
فصافحوها تصافح نفسها العرب

وهذا البيت من الشعر من أحسن ما قالته العرب طول أربعة عشر قرنًا.

وقد كان الشيخ محمد الأسمر من أظرف الناس وأملحهم وجهًا وأسمحهم خلقه، أنيقًا فى ثيابه الأزهرية يميل إلى السمنة وعندما رحل أمير الشعراء أحمد شوقى من دنيا التراب إلى عالم النور والضياء. ورشح الأستاذ عباس العقاد أميرًا للشعراء لأسباب سياسية دعا إليها حزب

الوفد، رشح الشيخ الأسمر أحد المصححين فى دار الكتب ليصبح أميرًا للشعراء ونشر له بعض القصائد، كان هو. أى الشيخ محمد الأسمر – قائلها.

والشيخ محمد الأسمر هو الذى أطلق على الدكتور زكى مبارك لقب الدكاترة زكى مبارك فسار هذا اللقب فى الآفاق.

أما الشاعر محمد الهراوى، فقد كان طويلاً عريضًا سمحًا باسمًا منشرح الصدر، وأنت لا ترى أمثال هؤلاء الناس الذين شرح الله صدورهم فاطمأنت قلوبهم ونفوسهم.

كان أبرع شاعر من شعراء الأطفال، وهو الذى يقول:

قطتى صغيرة.. واسمها نميرة

وكنا ونحن أطفال تنطق ألسنتنا وقلوبنا بقوله:

مصر العزيزة لى وطن..
وهى الحمى وهى السكن
وجميع ما فيها حسن

ومن أعجب نوادر الشاعرين : الهراوى، والأسمر، أنهما كانا يجلسان فى القهوة، حين مر بهما (تنبل)، من تنابلة تكية المغاورى، التى كان يرأسها الحاج سرى بابا، وكانت تقع خلف القلعة، ويشرف على شئونها الأمير يوسف كمال.

كانت هذه التكية جنة وسط الصخور والجبال، تغطيها الكروم وتحيط بها الأشجار، وكان من زبائنها (السير مايلز لبسون)، السفير البريطانى فى

مصر حيث كان يحلو له ولزوجته الإيطالية الحسناء أن يشربا من نبيذ هذه التكية، التى كان سكان القاهرة يروون عنها الأساطير والعجائب فى حفلات رقص المولوية، وهى تنابلة هذه التكية الذى أطلق عليهم أهل القاهرة لقب تنابلة السلطان، وهو سلطان آل عثمان.

مر هذا التنبل السلطانى بالقهوة العالية، وهو فى طريقه إلى سوق العتبة الخضراء، لشراء طعام لتنابلة السلطان الآخرين، ودخل القهوة ليشرب، فدعاه الشاعر محمد الهراوى لشرب القهوة فلبى الدعوة، وجلس مع الشاعرين الهراوى والأسمر ووضع الزكيبة الفارغة التى أعدها لوضع الطعام على الأرض. وطال الحديث بين ثلاثتهم، ثم دعا محمد الهراوى هذا التنبل، ليعزف لهم على العود فى منزل الهراوى بالحلمية الجديدة، فلبى الدعوة، ويبدو أنه كان من مهرة العازفين على العود وعلى آلة القانون أيضًا.

ثم وقعت الواقعة.

لقد امتدت السهرة فى بيت الهراوى حتى الصباح، وهى فى طرب وسرور، وانشاد للأشعار وعزف للألحان.

ولم يعد التنبل السلطانى بالطعام إلى تكية المغاورى، ولما يئس شيخ التكية الحاج سرى بابا من عودته أوجس شرًا وظن أنه خطف أو قتل أو حدثت له حادثة، فاتصل بالأمير يوسف كمال وأبلغه عن غياب التنبل، وما يساوره من شكوك حوله.

كان الأمير يوسف كمال رجلًا شرس الطباع، عصبى المزاج، لا تكاد تراه إلا وهو حامل على كتفه بندقية، وفى يده سلسلة كلب ضخم مفترس.

انقلبت الدنيا للبحث عن التنبل السلطانى، وجاس المخبرون ورجال البوليس فى حى الحلمية، وشارع محمد على، والعتبة الخضراء يبحثون عنه، حتى علموا من رمضان صاحب القهوة العالية، أنه ذهب مع الأستاذ محمد الهراوى إلى بيته فى الحلمية فى المساء، واقتحمت قوات البوليس بيت الهراوى ووجدوا التنبل ما زال يعزف على العود.. وما زال الشيخ محمد الأسمر ينشد أشعاره اللطيفة.

انتهت المشكلة.. ولكنها ظلت تروى بصور مختلفة، وتضاف إليها الحواشي والأحداث والأحاديث أياما طويلة.

أما قهوة الدكاترة زكى مبارك فى ميدان التوفيقية الذى أصبح اسمه ميدان عرابى الان فقد كانت حديث الناس، وملتقى الأدباء والشعراء بعد منتصف الليل، وحتى يأتى عسكرى الدورية لتغلق أبوابها بعد إلحاح شديد وبصعوبة بالغة.

كانت الندوة تنعقد صيفًا على الرصيف، وفى الشتاء داخل القهوة وكان نجم الندوة أو القهوة، وهو الدكاترة زكى مبارك يأخذ عصاه فى يده ويركب المترو من مصر الجديدة فى رحلته اليومية عند الساعة الحادية عشرة مساء، ويصل إلى القهوة عند منتصف الليل، حيث يجد أحبابه وأصحابه ومريديه فى انتظاره.

ومن تصاريف القدر أن زكى مبارك غادر دنيانا بعد أن أمضى ليلته وسهرته فى قهوته الشهيرة، وذهب ليركب المترو فى رحلة العودة إلى داره بمصر الجديدة، فانزلقت قدمه، وسقط على الرصيف فانكسر هذا الذى لم تستطع قسوة الحياة أن تمد إليه يدًا.

كان زكى مبارك فارس الكلمة فى هذا العصر بلا منازع.

كانت رأسه تحوى من كنوز المعرفة القديمة والجديدة مالا يمكن حصره أو إدراكه فقد قرأ كثيرًا، وتعلم كثيرًا، وعرف كثيرًا.. ثم كتب كثيرًا. كانت حياته قلما وورقة، وقد يجد الورقة فيها سندوتش فول. فيكتب عليها، وقد لا يجدها فيكتب على جدار بيته كما حدثتنى ابنته الأديبة كريمة زكى مبارك،أو يكتب على رخامة منضدة المقهى كما شاهدت بعينى.

أشرف عمل فى الدنيا أن تكون كاتبًا أو شاعرًا.

الوظيفة للطعام، والكتابة للمجد والخلود.

لقد فقد زكى مبارك كل وظائفه ولم يبق له إلا قلمه، ورزق القلم أقل من القليل، وكانت مهنة الصحافة فى عصره تشبه الهواية، فقد كنا فى جيلنا نعمل فى الوظائف طلبًا للرزق، ونعمل فى الصحافة أداء للأمانة، وكان الجمع بين الوظيفة والأمانة أصعب من المشى على الصراط، ولذلك كان زكى مبارك يفصل من كل وظيفة، ويجد نفسه دائما فى الشارع، فاختار رصيف مقهى يملكه رجل يونانى مكانًا لجامعته الليلية العجيبة، ولم يستطع أحد أن يفصله من جامعته أى من مقهاه الذى جعل ملكيته لأسطوطاليس اليونانى.

كان فى الصيف يغادر منها كل خميس ليركب قطار الصحافة إلى الإسكندرية بتذكرة مجانية يأخذها من إدارة المطبوعات، ثم يعود فى مساء يوم الجمعة، إلى مقهاه ليستأنف سهراته الحافلة.

ولم يجد زكى مبارك قهوات للأدب والفن مثل قهاوى القاهرة، ماذا كان يقول زكى مبارك لو أنه علم أن صاحب القهوة التى كان يجلس فيها

(جان بول سارتر) جمع الأوراق التى كان يلقيها فى سلة المهملات التى جعلها له تحت منضدته، وقد باع صاحب هذه القهوة أوراق سارتر المهملة بآلاف الفرنكات وألفت عن هذه الأوراق كتب ملأت الأسواق.

وفى ليلة شتاء أغلق عسكرى الدورية القهوة، فانصرف الزبائن و لم يبق إلا الدكاترة زكى مبارك، الذى تراءى له شيطان الشعر فى تلك اللحظة. فقال لمانولى صاحب المقهى:

– أغلق الباب يا أرسطو وانصرف، واترك المصباح مضاء. وسمع مانولى أو أرسطو كما كان يسميه، هذا الكلام، فتعجب، كيف يبقى الدكتور وحده فى القهوة حتى الصباح، ولكنه سمع وأطاع عندما سحب زكى مبارك عصاه مازحا، فأغلق الباب وانصرف، وبحث الدكتور عن ورق ليكتب قصيدته الشهيرة (يوم الثلاثاء) فلم يجد.

ماذا يفعل، وقد عاد الشعر متدفقا؟ هداه تفكيره إلى أن يبلل رخامة المنضدة بالماء ويكتب القصيدة بقلم الكوبيا، ثم نام على كرسى فى ركن القهوة.

وفى الصباح ذهب إلى جريدة البلاغ وطلب من المحررين أن يرسلوا أحدهم إلى القهوة لينقل القصيدة على الورق، فذهب صديقنا الراحل إبراهيم نوار، الذى تولى رياسة تحرير جريدة الجمهورية بعد ذلك بسنوات. ونقل القصيدة، التى نشرت أول مرة فى جريدة البلاغ.

وكان زكى مبارك يكتب مقاله الشهير (الحديث ذو شجون)، فى القهوة على أصناف مختلفة من الورق، بعضها من كراسة (مانولى) التى يكتب فيها حساباته، وبعضها أوراق كان ملفوفا فيها شىء اشتراه، أو سندوتش

أكله أو علبة سجاير فارغة.

كان فى هذه الأوراق قصائد. ومقطوعات نثرية، وهجمات على الأعداء، وحكايات وروايات لا أول لها ولا آخر.

كان هذا الرجل يستطيع أن يكتب وسط الزحام على منضدة المقهى، وكان يستطيع أيضًا أن يضرب بعصاه، وأن يطعن بقلمه.

ومن أعجب قهاوى القاهرة البلغارى التى كانت بجوار محطة باب اللوق.

كانت سردابًا مظلمًا فى النهار، خافت الضوء فى الليل، وكان صاحبها رجلًا بلغاريًا، طويلًا عريضًا منفوش الشارب أزرق العينين، وكان من رعايا الدولة العثمانية، عندما كانت مصر تابعة بالاسم لدولة الخلافة التى كان يحكمها سلطان آل عثمان.

وكان معظم روادها من الضباط السودانيين، الذين أخرجهم الإنجليز من السودان، فى أعقاب حادثة مصرع السير لى ستاك سردار الجيش المصرى، وقد عينوا فى وظائف ضباط البوليس بوزارة الداخلية القريبة من قهوة البلغارى، فا تخذوا منها مكانًا مختارًا للقاء، ولكن هذه القهوة كانت مكانًا للقاء آخر هو لقاء الأديبين الكبيرين: محمد السباعى وعباس حافظ، وكانا صهرين، إذ تزوج محمود السباعى ابن محمد السباعى وشقيق الصديق الأديب الراحل يوسف السباعى، بابنة عباس حافظ.

كان هذان النجمان اللامعان محمد السباعى وعباس حافظ من نوادر

هذا الزمان، التى لم ير النقاد ضوءها بقدرٍ كاف، وهما من أعمدة النهضة الأدبية الحديثة.

لقد ترجم محمد السباعى كتبًا هامة كثيرة بأسلوب عربى مبين، قلَّ أن تجده عند المترجمين. فقد كان ضليعًا فى اللغتين العربية والإنجليزية وهكذا كان صديقه وصفيه، عباس حافظ الذى كان فى أخريات أيامه مديرًا لوكالة الأنباء العربية.

ترجم محمد السباعى روايات مسرحية كثيرة لوليام شكسبير، كانت تباع بقروش زهيدة، ومن غرائبه أنه كان يضع أبياتا من شعر المتنبى وغيره من الشعراء بدلاً من النص الإنجليزى لأشعار شكسبير حين تتوافق فى المعنى، وكان من أعظم ترجماته، كتاب الأبطال لتوماس كارليل، وفيه ترجمة رائعة للنبى ﷺ لم أقرأ مثلها فى نص عربى أصيل، مع أن كاتبها الأصلى إنجليزى.. والفضل ما شهدت به الأعداء.

لقد كان هذان الصديقان من زبائن قهوة البلغارى فى باب اللوق، ومن أصحاب الأساليب الأدبية الرفيعة فى ذلك الزمان، الذى كان القراء يعجبهم الأسلوب البليغ، قبل أن تتطور صناعة الكتابة، إلى السهل الذى يريد أن يصل إلى جماهير القراء.

كان عباس حافظ، قصيرًا سمينًا أنيقًا أحمر الوجه، وكان محمد السباعى طويلاً سمينًا أنيقًا أحمر الوجه أيضًا، ولعلهما كانا من سلالة الشراكسة التى لا تشوبها سمرة الوجه عند أهل مصر من الفلاحين.

وكانا يسهران معًا فى قهوة البلغارى، حتى إذا انتهت السهرة قاما معًا لركوب عربة حنطور توصلهما إلى بيتهما، وفى كل ليلة يحدث المزاح

اللطيف عند موقف العربات أمام محطة باب اللوق.

كان أحد الرجلين يركب العربة من ناحية وينزل من الناحيةالأخرى، فإذا ركب صاحبه، ولم يجده راكبًا ينزل هو الآخر، ويتبادل الرجلان الركوب والنزول وسط الضحكات والمداعبات، وضجر العربجى الذى يطلب منهما أن يستقرا على رأى فى الركوب أو النزول حتى يركبا معًا وتتحرك العربة بعد أن يطرقع العربجى بكرباجه ويقول صائحًا:

– يا هادى..

كان هذا المنظر الظريف من المناظر المألوفة فى تلك الأيام، وكان يعجب الناس، ويقفون أحيانًا لمشاهدة هذه المباراة، وما يدور فيها من حوار لطيف خفيف الدم.

أما قهوة أبو شنب، التى كانت أمام وزارة الداخلية، فقد كان لها شأن آخر.

كان صاحبها يونانيًا، قصير القامة، يرتدى بنطلونا وصديرية سوداء، وفوقها مريلة بيضاء، وكان له شارب كث غزير الشعر، يملأ نصف وجهه، ولذلك أطلقوا عليه اسم أبو شنب، وأطلقوا على قهوته اسم قهوة أبو شنب.

وليس هذا هو المهم على كل حال، فقد كانت هذه القهوة مكان اللقاء لمندوبى الصحف العربية والأفرنجية فى ذلك الزمان، وأقول لك: إننى أحصيت عدد هذه الصحف عندما زحفت عليها الرقابة بعد حريق القاهرة الشهير يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢، فوجدت أن فى القاهرة وحدها أكثر من ستمائة جريدة يومية وأسبوعية وشهرية كانت تصدر باللغات العربية

والإنجليزية والفرنسية واليونانيةوالأرمنية، والعبرية أيضًا.

كان الصحفيون يجتمعون فى هذه القهوة بسبب قربها من وزارة الداخلية، ومن مجلس الوزراء، الذى كان مقره فى ميدان لاظوغلى فى قصر اسماعيل باشا المفتش، وقد كان العرف الجارى فى تلك الأيام أن رئيس الوزراء، هو الذى يتولى منصب وزير الداخلية، ولذلك كانت أخبار الدولة تجتمع فى قهوة أبو شنب.

لم تكن هناك أهمية كبيرة للوزارات الأخرى، إلا فى مناسباتها الموسمية، مثل حركة تنقلات أطباء وزارة الصحة أوظهور وباء الملاريا فى الصعيد، أو الكوليرا فى الشرقية، فينشط مندوب الصحة، وهكذا الشأن فى الوزارات الأخرى.

كانت وزارة الداخلية هى المصدر الأول، لأخبار الدولة، فى ذلك العصر، وقد ذكرت لك الأسباب، ولذلك كانت قهوة أبو شنب تمثل وكالة أنباء للصحافة المصرية.

وكان الصحفى الوحيد الذى لا يتعامل مع قهوة أبو شنب هو الأستاذ عبد الحليم الغمراوى، مندوب الأهرام وقد كان فى رياسة مجلس الوزراء وأحد الرواد البارزين فى مقهى بار اللواء، وقد كان عبد الحليم الغمراوى مندوبا صحفيًا نادر المثال يستطيع الوصول إلى أهدافه دائمًا مهما اختلفت الطرق، وقد روى أثناء (مباحثات صدقى - بيفن) الشهيرة، والخاصة بجلاء الإنجليز عن مصر، و التى كان الاساس فى اتفاقية الجلاء التى وقعها جمال عبد الناصر فيما بعد.

فى أثناء (مباحثات صدقى - بيفن)، عقد مجلس الوزراء جلسة خاصة

لبحث الموضوع، فاختفى عبد الحليم الغمراوى من بين الصحفيين فى رياسة مجلس الوزراء، ودخل قاعة الاجتماع خلسة ثم جلس تحت المنضدة الكبيرة المغطاة بالجوخ الأخضر، وظل جالسًا القرفصاء تحت المنضدة طول جلسة مجلس الوزراء يكتب كل شىء دار فى الجلسة.

وعندما انفض الاجتماع خرج من تحت المنضدة ورآه إسماعيل صدقى باشا رئيس الوزراء أمامه فابتسم ضاحكًا، ثم أدلى بتصريحات للصحفيين عن المباحثات، وأخذ عبد الحليم الغمراوى معه إلى مكتبه وطلب منه أن يقرأ له كل ماكتبه، وسمح له بنشر مايراه وطلب منه عدم نشر ما يرى أنه لا يجب أن ينشر فى ذلك الوقت، وخرجت الأهرام بحديث من رئيس الوزراء لم ينشر إلا فى جريدة الأهرام.

أما الصحفيون فى قهوة أبو شنب فقد كانت لهم نوادر وعجائب للحصول على الأخبار.

ومن اللطائف فى هذا الباب أن بعضهم كان يشترى الأوراق المهملة فى سلة المسئولين فى وزارة الداخلية كل حسب طاقته، فهناك من يشترى سلة مهملات وكيل الداخلية، وغيره يشترى سلة مدير الأمن العام أو رئيس القلم السياسى.

وكانت أهم سلة مهملات، هى سلة وكيل الداخلية بحكم صلته المباشرة بوزير الداخلية، ورئيس مجلس الوزراء، وفى سلته أهم أخبار الدولة.

ولما كانت الأوراق ممزقة فى السلة فإنهم كانوا يجمعونها إلى بعضها. ثم يلصقون الورقة الممزقة بعد جمعها على ورقة بيضاء كبيرة بمادة لاصقة،

وكانت هذه المادة، هى النشا الذى يستخدمه الطرابيشى فى صنع الطرابيش، وكانت دكانه أمام وزارة الداخلية. فكان الصحفي يشترى جردل نشا من الطرابيشى، ثم يقوم بهذه العملية التى ذكرت لك.

وعندما يكتمل لصق الورقة، التى كانت ممزقة يقرؤها ثم يستنتج منها خبرًا لنشره فى جريدته.. وهكذا كانت تصنع الأخبار.

ليس هذا هو المصدر الوحيد للأخبار، فقد كان فى وزارة الداخلية أخطر مصدر للأخبار، وهو تعليمات الرقابة التى يذكر فيها بالنص:

يمنع نشر كذا وكذا.

وكانت هذه التعليمات، تبلغ من مكتب وزير الداخلية إلى الرقابة على المطبوعات، وقد عرفنا أخبار محمد نجيب قبل قيام ثورة يوليو من تعليمات الرقابة، ولم نكن نعرف من هو محمد نجيب، حتى ظهر يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كقائد للثورة.

بقى أن أحدثك عن قهوة الفن فى شارع عماد الدين أمام مسرح الريحانى.

أنا لم أجلس فى هذه القهوة مرة واحدة فى حياتى مع أننى مررت أمامها آلاف المرات.

لقد تحدث عن هذه القهوة، المسرحى الكاتب الأديب الشاعر محمد تيمور، وكان يجلس فيها مع سيد درويش، ونجيب الريحانى، وزكى طليمات، والسيدة روز اليوسف، وغيرهم.

ولابد أن هذه القهوة كان لها دور فى تاريخ المسرح المصرى، ولكن

غيرى من أهل الفن، هم الذين يستطيعون الحديث عنه.

وقد كان محمد تيمور يقابل سيد درويش فى هذه القهوة، عندما لحن الشيخ سيد رواية العشرة الطيبة، وسمعت أن نجيب الريحانى، كان يتناقش مع بديع خيرى طول مسرحياته على منضدة فى هذه القهوة، كما كتب بديع خيرى أزجالاً كثيرة على هذه المنضدة.

هذا لا يكفى للحديث عن هذه القهوة. ولكن.. هذا يكفى للحديث عن قهاوى الأدب، والفن فى القاهرة.

ولهذا الحديث بقية، يستطيع أن يكتبها كتاب آخرون عن قهاوى لا أعرفها، مثل قهوة عبدالله الشهيرة فى الجيزة، حيث كان يجلس أدباء لهم شأن فى الحياة الأدبية المصرية مثل الدكتور عبد الحميد يونس، وزكريا الحجاوى، ومحمود السعدنى، وغيرهم.

ولابد أن هناك قهاوى أخرى غير قهوة عبد الله.. كان آخرها على ما أعلم (المقهى الثقافى)، الذى أقامه الدكتور سمير سرحان فى معرض الكتاب الدولى فى مدينة نصر بالقاهرة.. ولكنه مقهى مؤقت ليست له صفة الدوام، ولكن له صلة بمعرض الكتاب.

رقم الإيداع		١٩٩١ / ٤٨٩٧
الترقيم الدولى	977 – 02 – 3349 – 2	ISBN

١ / ٩١ / ٤١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

اقرأ

هذا الكتاب جولة سريعة وطريفة فى موضوع من موضوعات الثقافة المصرية .. هو دور « القهاوى » فى الحركة الأدبية والفنية فى القاهرة ، فقد كانت هذه « القهاوى » مسرحاً للأدب والفن - مثلما كانت فى أوروبا - المكان الذى يتجمع فيه عباقرة الأدب والفن لوضع ملامح عصورهم .. وخطوط حضارتهم .

١٠ / ٨١١٢٠٦